

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

امرأة عبد المتجلي

A.Motagalli's Woman

Dr. Naguib Al Keilany

عبد الرحمن

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
فاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.co

Design by Abdul Rahman Magdy

امرأة عبد المتجلي

د. نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٤هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٩٨٠٤

الترقيم الدولي:

977-255-350-3



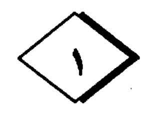
للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرواية «امرأة عبد المتجلى» تصور حقبة من الزمن من حياتى، بعد أن قدمنا سطوراً منها فى الرواية الأولى تحت اسم «اعترافات عبد المتجلى».

د. نجيب الكيلانى





عاد «عبد المتجلى القصاص» إلى عمله فى مجلس القرية، وبدأ فترة من الكمون والاسترخاء يستعيد فيها أمنه واستقراره كى يمارس حياته من جديد، وقد اختزن تجربة مُرة، وذكريات مؤلمة لا يمكن نسيانها، ربما تراوده من آن لآخر أشباح القبض عليه، والمعاناة الشاقة، حينما كان يبحث عن الونش المسروق.. د'لك الوهم الكبير الذى عاش فيه حتى أنهكت قواه، كان كمن يبحث ء ن إبرة فى كومة من القش بيد أن ذلك الوهم لم يلغ القضية، أو لم يم ح سطور السرقة التى تمت فعلاً، لكن الفشل الذى مُنِي به عبد المتجلى هو التى أحال المغامرة كلها إلى وهم، ولو عثر عبد المتجلى على «الونش المفقود» لتحولت الأوهام المعلنة اليوم إلى بطولة يتحدث بها الناس.. وهكذا الناس دائمًا مع المنتصر ولو كان على الباطل.. وأعداء للمهزوم ولو كان صاحب حق، بذلك كان يحدث نفسه كلما خلا بها.

لكن هل انهزم عبد المتجلى فعلاً؟؟ هذه قضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص، فهو يعتقد أن الواجب لا بد وأن يقوم به سواء تحقق النجاح أو حل الفشل، هذا الالتزام والإصرار فى حد ذاته انتصار على الضعف والخوف، ونهوض بالمسؤولية، كل الناس أو معظمهم فى «كفر أبو سالم» بل وفى طول البلاد وعرضها لا يهتمون إلا بقضاياهم الشخصية، أما القضايا العامة التى تمس الجميع أو ترتبط بالوطن، فلا قيمة لها عندهم إلا إذا ربحوا من ورائها كسبًا مباشرًا عاجلاً.

وإذا لم يكن عبد المتجلى قد عثر على الونش المسروق الذى ملأت أخباره الشوارع والصحف والمجالس، فإنه قد عثر على شيء آخر خطير هو ذلك الخلل الرهيب فى الإدارة والنظام وأسلوب التفكير والأمن والحياة والحقوق والغايات والأهداف.

وعبد المتجلى لا يمكن أن ينسى طول حياته ذلك المشهد المثير الذى استقبله به أهل كفر أبو سالم، لكأنه عاد مثل نابليون الذى هرب من منفاه فاستقبلته الجماهير والجنود فى فرنسا استقبال الأبطال المنتصرين.. لا شك أن هذا اللقاء بين عبد المتجلى وأهالى كفر أبو سالم كان لقاء يفيض بالحب والصدق، ولم يخالطه شيء من النفاق أو الزيف، كانت انطلاقة حرة معبرة عما يجيش فى قلوب الفلاحين البسطاء الطيبين، ولا ينقص من روعة

ذلك المشهد التصرفات الحمقاء التى ارتكبها حضرة العمدة الحاج إبراهيم صوان .

وعاد عبد المتجلى إلى زملاء مجلس القرية وهو أكثر وعيًا وتحفظًا وصمتًا ، ظل فترة طويلة يرى ويسمع ، ويختزن فى ذاكرته تلك المشاهد والمسامع ، دون أن تند عنه تعليقات .

أما زوجه أم صابرين ، فقد كانت تفكر بأسلوب آخر على الرغم من أعراض الحمل التى تلازمها ، إن دخل عبد المتجلى لا يفى بالحياة الطيبة اللائقة ، ولهذا فكرت فى افتتاح محل صغير على غرار ذلك «الكشك» الذى كانت تديره فى القاهرة ، وهى لديها الموهبة والخبرة والفراسة التى تمهد لها طريق النجاح ، لم ترق الفكرة للعجوز «رمانة» أم عبد المتجلى ، وكذلك اعترضت بدرية وخطيبها أشرف ، وعاد عبد المتجلى يتراوح بين الرفض والقبول .

لكن أم صابرين كانت من الذكاء بحيث بدأت مشروعها بطريقة هينة لينة لا تلفت النظر ، فعندما ذهبت إلى طبيب المركز للفحص انتهزت الفرصة واشترت عددًا من السلع الخفيفة الجذابة : مناديل . . زجاجات عطر صغيرة . . أساور ملونة رخيصة . . أقراطًا . . بعض أدوات التجميل . . شيلانًا وجوارب . . حلوى وشيكولاته للأطفال . . وجاءت بذلك كله إلى منزلها ، ثم أخذت تعرض ما لديها على الجيران والزوّار ، وفى أيام قليلة تمت عملية

التسويق منزليًا، ثم تكرر ذلك، وفى يوم جاء عبد المتجلى يقول:

- «إنك تضعيننا أمام الأمر الواقع. .».

قالت باسمة:

- «إن مرتبك لا يكفى لإطعام البقرة والحمار».

أدرك أنها على حق، فقال:

- «ثم ماذا بعد ذلك؟».

- «بقى أن نعلن عن افتتاح المحل».

ضحك وقال:

- «ونطلق عليه «سوبر ماركت» أم صابرين؟».

- «ولم لا؟ أنت موظف ولا يحق لك التجارة».

بدا على وجهه أنه يفكر بتأن وروية، لم يعد عبد المتجلى ذلك الشاب القديم الذى يستجيب بسرعة لعواطفه، ويصرخ بأعلى صوته معبرًا عن آرائه وأفكاره، ولو كلفه ذلك العنت والعذاب، ليس هذا جبنًا، ولكنه تطور جديد غيّر حياته.

- «فيم تفكر يا عبد المتجلى؟».

- «المشاريع التجارية يا زوجتى تحتاج إلى استقرار. . ورأس المال جبان كما يقول رجال الاقتصاد».

لم تفهم أم صابرين الجملة الأخيرة من عبارته، أدركت فقط أنه يتكلم عن رأس المال. . أى المبلغ الذى ستستثمره فى التجارة. .

قالت بثقة:

- «رأس المال موجود. . والزبائن حولنا. . والله معنا. . ».

وأخذ عبد المتجلى يقص فى شرح الظروف والملابسات التى تحيط به، فمثلاً حضرة العمدة سوف يتصدى له، ويطالبه باستخراج رخصة على الأقل، وقد يبلغ مصلحة الضرائب، وربما يوعز إلى الخفراء كى يداهموا المحل ليلاً ويسرقوا البضائع «حاميها حراميها يا أم صابرين»، ثم إن كفر أبو سالم فيه عصابات تسرق الحقول، والبهائم والبصل والخبز والزبدة والأوانى النحاسية. . اللصوص فى القرية- كما يؤكد عبد المتجلى لزوجه- غير متخصصين، فهم يسرقون أى شىء، على النقيض من لصوص القاهرة الذين يتدربون فى مواقع معينة على سرقة أصناف بعينها. . والذين يسرقون صنابير المياه من المسجد ويخلعون النوافذ، والمصابيح الكهربائية، لن يتورعوا عن سرقة بضائع أم صابرين، ومن جملة الاعتراضات التى ساقها عبد المتجلى أيضًا أن وضعه السياسى بعد اعتقاله والتحقيق معه ثم الإفراج عنه قد خلق له مشكلة من نوع جديد ألا وهى عدم الاستقرار، فمن المتواتر والشائع بين خلق الله أن المباحث إذا عرفت طريقًا إلى رجل

مشبوه، فإن ذلك المشبوه سيظل هكذا طول حياته ولسوف يراقبونه، ويحصون حركاته وسكناته، ويستقصون أخباره، ويستدعونه من آن لآخر، ولو بدون سبب وجيه، كى يشعرون أنهم متيقظون لما يفعل أو يقول، وأنه تحت المنظار دائمًا، فحذار ثم حذار أن يلعب بذيله، وإذا حدثت- لا قدر الله- فتنة سياسية، وما أكثر ذلك فى هذا الزمان، بدأت موجة اعتقالات جديدة، فغالبًا ما يساق المشبوه مع غيره من المعتقلين من باب التحفظ، وهكذا أفاض عبد المتجلى فى تحليله للوضع محبذًا عدم افتتاح «السوبر ماركت» هذه المرة.

قالت أم صابرين:

- «والبديل؟».

هز عبد المتجلى كتفيه وقال:

- «ليس هناك بديل».

- «إذن دع الأمر لى، وسأتصرف مع العمدة، ومع الحكومة.. التجارة لى، والسياسة لك..».

لم تستمر معارضة العجوز «رمانة» طويلاً، وخاصة عندما ناقشتها أم صابرين، وشرحت لها طبيعة العمل، والأرباح المتوقعة، ووعدتها بالكثير من المنح، ومساعدتها فى حج بيت الله، وشراء المزيد من البقر، وربما الأرض الزراعية، ولم تنس أم

صابرين المحنكة أن تسرد على سمع «رمانة» أسماء النساء اللاتى يقمن بالتجارة فى كفر أبو سالم، وفى غيره من القرى المجاورة.

وانشغل عبد المتجلى بموضوع الفرقة المسرحية بالقرية، لم تكن لديه الدراية الكافية بهذا الفن وأصوله، إنه مجرد مشاهد يرى ما يعرضه التليفزيون من مسرحيات، وقد يقرأ مسرحية لتوفيق الحكيم أو على باكثير أو برنارد شو، ولهذا بدأ عبد المتجلى يقبل على قراءة بعض الكتب المبسطة عن تاريخ المسرح، وعناصر المسرحية كالبداية والعقدة والنهاية، وفن الحوار، وعندما ذهب لأول مرة إلى فرقة المسرح بالمحافظة ليشاهد على الطبيعة النشاط المحلى، أصيب بخيبة أمل، لقد وجد الطلاب يخطبون ويصرخون فوق الخشبة، ووجدهم يمثلون قصة تاريخية مكررة لا يوجد جديد فى شخصياتها أو أحداثها أو دلالاتها، وسأله أحد الحضور عن رأيه فى المسرحية فقال:

- «أنا لم أر سوى مجموعة من الخطباء والهتافين».

وعاد يفكر كيف يبدأ عمله الجديد فى مجلس القرية؟؟ وهل القرية فى حاجة إلى مسرح بعد انتشار التليفزيون؟ وما هى الموضوعات التى يتناولها هذا المسرح الريفى؟! ومن سيضع النصوص؟ ومن سيقوم بالإخراج وتدريب الممثلين، وتوفير الأزياء المناسبة؟ لقد سرق اللصوص من أعضاء مجلس القرية ثلاثة أرباع المعونة التى رصدها المجلس الأعلى للشباب والرياضة للنهوض

بالمسرح فى قرية أبو سالم، فهل سيجمع عبد المتجلى التبرعات لإنشاء مسرح حقيقى؟؟ إن الناس يتبرعون بصعوبة لترميم المساجد والمدارس، بل لا يدفعون أحيانًا إلا تحت الضغط والإكراه الخفى، ومن يجرؤ على طلب معونة للمسرح فيتعرض للسخرية والازدراء، والمسرح عند الفلاحين نساء جميلات . . وقفشات . . ورقص . . وقلة حياء . .

قال شيخ المسجد :

- «المكان لا يناسبك يا عبد المتجلى» .

- «أريد الإصلاح . . » .

- «المسرح يا مولاى حلال بما فيه، حرام بما فيه» .

- «وهم ملأوا الوعاء بالقذرات حتى فاض يا عبد المتجلى» .

- «يا سيدى نستطيع أن نسكب ما فى الوعاء . . » .

- «مَنْ أنتم يا ولدى؟؟» .

- «نحن الشعب . . » .

- «والشعب محكوم لا حاكم» .

- «المسرح منبر من منابر الحرية . . » .

- «هذا إذا وجدت الحرية» .

- «إنى واثق يا شيخنا أنى قد أغير».

- «فلتحاول..».

وقال الشيخ باسمًا:

- «إذا كسرت الإناء، فقد تصيبك الشظايا، وإذا أهرقت ما فيه فربما يصيبك النجاسة».

انصرفت أم صابرين إلى السوبر ماركت.. وانصرف عبد المتجلى إلى المسرح.

ولم يكن لدى العمدة والإدارة مانع، وخاص أن أم صابرين سخية اليد، وإذا أعطت لخفير أو كبير أو مدير بيمناها، لم تعرف يسراها عن ذلك شيئًا.

- «إنها ليست رشوة يا عبد المتجلى، هذه مجرد عمولة أو مصاريف إدارية مقابل التسهيلات الأمنية والتجارية التى يحظى بها السوبر ماركت».

ذهل عبد المتجلى، ما الذى يجرى فى هذه القرية، الكذب له ألف اسم واسم، والرشوة تتزين بأردية شتى مختلفة الألوان، والظلم اسمه الضبط والربط والأمن الاجتماعى، ومجالس الاستغلال والنصب يطلقون عليها مجالس القرى، والإفساد الزراعى يدعى بالإصلاح الزراعى..

وصرخ عبد المتجلى بأعلى صوته ذات ليلة وقال:

- «أم صابرين أيتها الملعونة».

أقلبت مسرعة وهى تلهث، يتقدمها بطنها المتضخم فقد أصبحت حاملاً فى شهرها السادس وقالت:

- «هل صحيح ما سمعت؟؟».

- «كيف لا تكونين ملعونة وأنت تحلين ما حرم الله.. الراشى والمرتشى فى النار.. والمحتكرون والمحتكرات فى النار..».

قالت بحزم:

- «كفى.. وكن عادلاً».

- «هل من العدل أن تخرجى عن قوامتى وطاعتى».

- «ماذا أقول؟».

- «قولى أنك خاطئة جاهلة».

- «ستعاودك نوبة الونش..».

شعر بالمهانة، خيل إليه تسخر منه، ارتجف جسده، همّ بالانقضاض عليها، وحينما رماها بنظراته المتقدة الغاضبة رأى فى عينيها الحب الحقيقى والسكن والاحترام، وانزلقت نظراته إلى بطنها المتكور فتذكر الابن الذى يحلم به، ومع ذلك فإن مرارة قاسية تترسب فى أعماقه.

- «تعلمين أن أحبك».

- «وتعلم أنك روحى وحياتى».

- «فلنهرب بجلدنا . . ونبحث عن أرض جديدة ليس فيها قلق وسمسرة ورقابة».

- «أنفر من قدر الله يا عبد المتجلى».

قال عبد المتجلى متمثلاً بقول ابن الخطاب :

- «نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله».

تنهدت قائلة :

- «الفرار مستحيل».

- «لماذا؟؟».

- «القاهرة . . كفر أبو سالم . . كفر البطيخ . . الإسكندرية كلها شىء واحد».

- «والحل يا أم صابرين».

- «البقاء هنا . . والتحدى».

- «إنهم يغدرون».

- «ونحن محصنون».

- «بماذا يا أم صابرين؟».

- «بفقرنا.. وضعفنا.. واعتمادنا على الله».

أدرك عبد المتجلى أن شخصية أم صابرين تتحول، وأنه هو الآخر يتحول لا.. لا.. إنه يتفاعل.. يضطرم.. والحيرة عذاب.. والفراغ مرض.. لا بد أن يستقر، أن يفعل شيئًا، إن أفكاره لم تعد على ما يرام، والقيم التى آمن به واستقرت فى أعماقه تفرز بثرات من نوع آثم، وتبرز أعراضًا وعلامات ليست لها، بل ربما يكون العكس هو الصحيح.. إن هناك هجومًا نفسيًا فكريًا داخليًا شرسًا على مبادئه، البثرات والأعراض ليست منه، إنها عدوى من الخارج، لا شك أن ذلك الاهتزاز عارض أو مؤقت..

لا بد من عودة عبد المتجلى الأصيل..

همس لأم صابرين:

- «أنا كالتائه فى الصحراء».

- «أنت حبيبى ودليلى».

- «أهم ما فيك يا أم صابرين أنك مستقرة».

- «لأنى أردت ذلك..».

- «وأنا؟؟».

- رمت بشعرها إلى الخلف وقالت ضاحكة :

- «أنت جنٌّ مصوّر» .

ضحك وقال :

- «دعك من المزاح . . . » .

- «وأقسم بالله أنك عبقرى . . . » .

- «ثناء كالمواساة . . أو العزاء . . . » .

- «البرد قاتل . . وأنت مشتعل . . . » .

شرد ببصره إلى بعيد وقال :

- «كانت هناك أغنية قديمة فى بدايات الثورة . . لم يزل صداها يرن فى أذنى . . كانت تقول :

خلى الثورة تولع نار.

تولع نار.

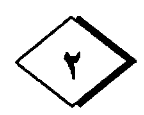
تولع نار.

قالت أم صابرين :

-«ثم ماذا؟» .

قال :

- «لا أتذكر إلا كلمة تولع نار . . تولع نار . . » .



لم يخف على أم صابرين أن عبد المتجلى يتعذب، وأن رأسه تلتهب بتساؤلات قاسية لا ترحم: لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ ومن؟ وقد يجد جوابًا لهذا التساؤل أو ذاك، لكن سرعان ما يتبدل يقينه، ويساوره الشك، وتلمع فى ذهنه إجابات جديدة، لكنها فى الغالب لا تكون أسعد حظًا من سابقتها، وفى أحيان كثيرة يحمل تساؤلاته إلى أستاذه وصديقه شيخ الجامع، فيبدى رأيه من خلال نصوص محفوظة، ويفكر عبد المتجلى فى النصوص فيرى فعلاً فيها العصمة والنجاة.. لكن.. ولشد ما تعذبه «لكن» هذه، لكل نص ظروف ومقدمات وتاريخ ومفسرون، والقياس يبدو عسيراً بالنسبة لرجل مثل عبد المتجلى، لم يصل بعد إلى الأعماق البعيدة التى تكشف له عن الجذور، وكثيراً ما يلجأ عبد المتجلى إلى نداء الفطرة فى ضميره وعقله، إنها تجربة ذاتية لكنها كثيراً ما تصيب، آه.. كانت فطرته كالجوهرة المكنونة حتى دخل حياته ذلك الونش

المسروق والملعون، عندئذ بدأ رحلة من نوع عجيب، وكان للقهر والسياط وحصار المحققين أثر لا يمحى من حياته، ربما كانت هذه التجربة المريرة أول انتهاك كبير لفطرته . . ربما . .

القرية نائمة، والنور منطفأ، وعبد المتجلى يبعث بنظراته اليقظى عبر النافذة شارداً، وأم صابرين تغط فى نوم عميق شعر عبد المتجلى- والعياذ بالله- بدبيب الجسد فى قلبه، لكزها بخفة وقال:

- «ألم تجربى الأرق قط».

وكم كانت دهشته عندما وجدها تتحرك، وتتحول دون أن تفتح عينيها:

- «ومن أين أجد وقتًا للأرق؟».

ولما لم يعلق بشيء، نهضت وجلست إلى جواره، واضعة يداً على بطنها المتكور، واليد الأخرى على كتفه وقالت مداعبة:

- «الأرق لأولاد الذوات يا عبد المتجلى».

- «لكن كما ترين أصبح من نصيب الطبقة الكادحة».

- «لو كنت كادحًا كما تزعم لنمت كالقتيل . .».

قال وهو يتنهد:

- «إنه ميكروب الفكر يا امرأة . .».

ربما لم تدرك على وجه الدقة ما يعنيه، لكنها قالت:

- «الفكر هو سبب كل البلاوى».

- «الفكر عندك يعنى الهموم والأحزان».

- «وماذا يعنى غير ذلك؟».

قال فى شىء من الضيق:

- «الفكر فلسفات ومشاكل.. وبحث عن حلول لقضايا الفرد والمجتمع».

كيف يتغلب على قوى البطش والطغيان؟ كيف نحرر المظلومين، ونحقق العدل بين الرعية؟؟ ولماذا لم نتقدم صناعيًا وحضاريًا؟ ولماذا تفيض أنهار الصحف، وأحاديث الكبار بالخداع والكذب، هذا بعض ما يعنيه الفكر..».

كان النوم يداعب أجفان أم صابرين، ومع ذلك فقد كانت تقاوم، وتستوعب بعض ما يقول، فغمغمت وهى تعطيه ظهرها، وتلقى برأسها على الوسادة:

- «لم تخرج عن كونها هموم.. لو شغلت نفسك بعمل حقيقى كالتجارة مثلاً لاستغرقت فى النوم بعد العشاء..».

وانبعث غطيطها من جديد..

قال له طبيب الوحدة:

- «لا بد أن تأخذ أقراصًا منومة وإلا حدث لك انهيار عصبى».

لكن أحد زملاء العمل همس فى أذنه:

- «فص أفيون يجعلك فى دنيا غير الدنيا..».

- «مخدرات؟؟».

قالها عبد المتجلى فى اشمئزاز واستنكار، لكن صاحبه ابتسم وقال:

- «إنه علاج يا ولدى..».

وقالت حكيمة قديمة ذات خبرة:

- «اشرب كوبًا من اللبن الدافئ قبل النوم».

ومدرس التربية البدنية فى مدرسة الوحدة الريفية أوصاه بأن يمشى على الأقل ساعة، ثم يأخذ حمامًا دافئًا، ويسرع بالارتماء على فراشه، لكن شيخ المسجد كتب له بعض الأدعية المجربة والمأخوذة عن رسول الله ﷺ وسنته الغراء والموجودة فى كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى -مثلاً-، وما عليه إلا أن يرددها ثلاثًا بإيمان ويقين، ثم ينام على جانبه الأيمن، ويقول: «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وساءت حال عبد المتجلى من استعصاء الأرق على العلاج، فيمم وجهه شطر مدينة طنطا لكى يستشير طبيبًا متخصصًا دون أن يخبر أحد بذلك.. ونزل المدينة، كانت تعج بخلق كثير؛ لأن الاحتفال بمولد السيد البدوى فى أوجه السيارات والإبل والمجاذيب والمنشدون والعبّاد يتقاطرون من كل صوب نحو الخيام المنصوبة فى الساحة الكبيرة، وإلى المسجد الأحمدى الشهير الذى لا يكاد يجد فيه موضعًا لقدم.

إنها مشاهد كل عام.. السِّيرْك.. والذاكرون.. والألعاب البهلوانية، والحمص والحلوى و«حبُّ العزيز» وعازف الناى، وأغانى الأفراح، وشعراء الربابة: قصة أبو زيد الهلالى، وأدهم الشرقاوى، أيوب وناعسة.. عبد المتجلى يكاد يغيب عن العالم المحسوس وهو يستمع إلى قصة أيوب.. ودموعه تنهمر.. ويكاد يشهق من شدة التأثر.. بعد أن استمع إليها عاد مرة أخرى، واقترب من رئيس فرقة الإنشاد، ووضع فى يده نصف جنيه وهو يقول:

- «أعد.. الله.. الله».

وامتزج لحن الناى بالأرغول ودقات الطبلة، وخرج الصوت الجماعى الحزين يروى عن عظمة الصبر، وروعة التضحية، والبلاء العظيم، وكيف أن الصبر أحسن دواء، وأن عاقبته خير عميم،

ونعيم مقيم، وأخذ عبد المتجلى يتمايل مع الصوت الدافئ، والموسيقى المتماوجة فى جزرها، ومدها، وفى هدوئها وثورتها، فى نيرانها الملتهبة، وأنسامها العلية. . وأخذ عبد المتجلى يسكب الدموع حتى بعد منتصف الليل، وعندما وصل إلى «الخيمة الكبيرة» التى يقيم فيها معظم الزوّار من أبناء القرية، ألقى بنفسه على بساط عتيق دون وسائد أو حشايا، وراح فى نوم عميق، ولم يفق منه إلا بعد شروق الشمس.

قال له الطبيب المختص فى اليوم التالى:

- «ارتفاع فى ضغط الدم، لكن حسبما أعتقد من النوع العصبى ولا يحتاج إلا لتنظيم الطعام، وتهدئه الأعصاب، والقيام برحلة ترفيهية للترويح عن النفس. . ترى هل يضايفك شيء استعصى على الحل؟؟».

ابتسم عبد المتجلى قائلاً:

- «وهل فيها ما يُسرّ؟؟».

- «يالتأكيد».

- «أين؟؟».

«أشار الطبيب إلى صدر عبد المتجلى مؤكداً:

- «هنا. .».

- «هنا مخزن الأحزان».

- «والأفراح . . ».

صمت برهة، وقال:

- «ما رأيك يا دكتور فى تكوين حزب سياسى جديد».

نظر إليه الطبيب فى دهشة، ظن أنه أمام مريض نفسى يعانى من الهلوسات، ومع ذلك فقد رد قائلاً:

- «أنا لا أميل إلى الانتماء للأحزاب السياسية».

رد عبد المتجلى بسرعة قائلاً:

- «عندك حق، فأحزاب الأغلبية تفعل ما تشاء، والمعارضة تأخذ على قفاها، والشعب غائب عن هؤلاء وأولئك . . والأمر لصاحب الأمر . . وأنا شخصيًا لا أجد فائدة من الذهاب إلى صناديق الاقتراع . . لأن النجاح أو السقوط لا صلة له بما فى هذه الصناديق من بطاقات فى كثير من الأحيان . . ».

ربت الطبيب على يده وقال:

- «يا سيد عبد المتجلى . . كثرة الأطعمة المملحة ستزيد من ارتفاع الضغط، وحذار من السهر والانفعالات الشديدة، ولا تملأ معدتك بالطعام الدسم . . ولا أنصحك بأخذ الأدوية المنومة إلا لمدة أسبوع واحد فقط حتى تنتظم فى نومك . . ».

هرش عبد المتجلى رأسه مفكراً، وقال فى جدية:

- «إنني سأدعو إلى تكوين «حزب الصابرين». . لأن الصبر يا دكتور هو ألصق صفة بشعبنا منذ آلاف السنين. . نحن شعب عريق فى الصبر. . ».

وعاد الطبيب إلى مكتبه، وتناول وصفة طبية، وأخذ يسطر عليها بعض العقاقير، وكان يقول:

- «الصبر لا يحتاج لحزب جديد. . ولو كنت صادقًا فى صبرك لما ارتفع ضغطك، واستبد بك الأرق. . الصبر جنة. . لكنك- حسبما أرى- تعيش فيما يشبه الجحيم. . والصبر على الجحيم الدنيوى جنة. . ».

تفكر عبد المتجلى مليًا فى كلمات الطبيب، تداخلت الذكريات القديمة منذ أن علم بنبأ اختفاء الونش، والمتاعب التى تصدى لها أثناء البحث عنه، وأنياب الوحوش التى ساقته ذات يوم إلى ذلك القبر المعلون حيث لقنوه درسًا لا ينسى، ثم خروج القرية لاستقباله بصورة مذهلة، وقصته مع الفن والمسرح والوظيفة. .

- «أنت حكيم فعلاً».

- «ما أنا إلا طبيب وحصليتى من أفواه المتألمين الذين يأتوننى مستغيثين آملين، وأودعهم شاكرين صابرين. . ولكل مريض أقول: احمد ربك. . أنت أحسن حالاً من غيرك بكثير. . ».

ابتسم عبد المتجلى فى ارتياح وقال :

- «أترى أنى . . » .

قاطعه الدكتور قائلاً :

- «أفضل من غيرك بكثير ، بكل تأكيد» .

- «مثل ماذا؟» .

- «هناك من يصــابون بالشلل . . أو بنزيف المخ . . أو بالنوبة القلبية . . أو . . » .

هتف عبد المتجلى وقلبه يدق بعنف :

- «كفى . . » .

وانسحب خارجًا ، ولدى الباب جاءه صوت الطبيب :

- «لقد نسيت الوصفة يا سيد . . » .

●●●



عاد إلى الحقل، راكبًا حماره، ساحبًا بهائمه، تاركًا هموم الدنيا وراء ظهره، وفى الوقت نفسه لم ينقطع عن الذهاب إلى مقر وظيفته فى مجلس القرية دون حاجة إليه، وعندما لا يذهب يتطوع رئيسه بالتوقيع نيابة عنه فى الدفتر، وطلبوا منه ذات يوم أن يرشح نفسه فى انتخابات القرية، وسوف يؤيدونه بقوة، كان الأمر غريبًا جدًا بالنسبة له، هل يمكن أن يصبح خائن الشعب، والمتمرد على الحكومة، والمضروب على قفاه وآليتيه ممثلاً للقرية وللحزب الحاكم؟ كيف تدخل هذه التصورات إلى مخه؟؟ ربما تكون هذه الفكرة امتحانًا لنواياه، وقد تكون شكلاً من أشكال السخرية التى يحلو لهم القيام بها فى احتواء لثورته ومعارضته، وأيًا كان السبب فإن عبد المتجلى رفض الفكرة تمامًا، فهو مشغول بمرضه، وبزوجه الحامل، وبلقمة العيش التى لا بد من توفيرها، واتخاذ كافة الوسائل لإتمام زواج أخته «بدرية»، وللعناية بأمه العجوز «رمانة»، وفى الحقل وجد عبد المتجلى نفسه الأصيلة، إنه يلبس الآن جلبابًا فضفاضًا بعد أن خلع

عن جسده السروال والقميص، والأرض الخضراء التى يعشقها تمتد أمامه إلى بعيد، حيث لا حدود ولا قيود مرئية، الحقول كلها تتعانق على البساط الأخضر، بما فيها ممتلكات العمدة وأصحاب الأملاك والمستأجرون. لا فرق، حتى مياه الترعة هى الأخرى تبلّل شفاه الحقول العطشى، ثم تنهمر من السواقى أو الماكينات الحديثة وتفيض على المساحات.. وعبد المتجلى يتذكر الحكمة القديمة التى ربما قيلت منذ عهد الفراعنة «الأرض تفرح بصاحبها».. نعم.. إنه يشعر بذلك الفرح فى أعماقه، وليس أدل على ذلك من انبساط أسارير وجهه، وارتمائه ذات أصيل رائق على شاطئ الترعة، تحت شجرة صفصاف كبيرة، حيث استغرق فى نوم عميق.. نام كما لم ينم من قبل، هو يتذكر تلك اللحظات.. بعد أن بذر البرسيم، وروى الأرض، كان يشعر بحيوية متدفقة، أعقبها تعب لذيذ، ثم ثقلت رأسه، فوضع رأسه على جذع شجرة مقطوعة جافة، ونام.. لم يكن فى رأسه أفكار ولا فلسفات.. كان جل همه محصوراً فى نطاق الحقل الصغير، ومستقبل البرسيم، ومحصول الذرة الذى لم تزل عيدانه واقفة حبلى بالكيزان الخضراء.. ولم يفق من النوم إلا عند أذان المغرب، ولعل برودة الجو قد عاقت امتداد سباته.

قالت أم صابرين بعد تناول العشاء:

- «أتعلم ما هى مشكلتك؟؟»:

- «بالتأكيد . . إن القضية هى أننى لا أستطيع التأقلم مع هذا العالم الفاسد، ولا . . » .

قاطعته وإشراقة حب متألقة تصبغ وجنتيها الشهيتين :

- «مشكلتك المال» .

- «هذه فلسفة السقوط» .

تمتمت دون أن تفهم معنى بعض كلماته :

- «بل النجاح» .

هى تدرك أن لفظة النجاح تضاد لفظة السقوط ، وكانت تريد أن تقول له ببساطة إنها على صواب ، وإن توجهاته الفكرية محض خطأ ، وكان عبد المتجلى يعرف أنها لم تحصل قدرًا يذكر من المعرفة الحديثة أو حتى القديمة ، وإن كانت ذات خبرة بشؤون الحياة العملية ، ولهذا كان يحترم خبرتها ، ويستحقر علمها .

قالت :

- «أقول بصراحة . . المال هو القوة . . لو كنت غنيًا يا عبد المتجلى لدانت لك الرقاب . . ولانحنى لك العمدة نفسه احترامًا وإكبارًا . . وشيخ الجامع يا عبد المتجلى يروى عن الرسول أن تسعة أعشار الربح فى التجارة . . » .

هز عبد المتجلى رأسه مفكرًا وقال :

- «أنت مثل عامة الناس فى هذا الزمان» .

- «أفى ذلك عيب؟» .

توقف لحظات ، إنها تقول كلمات كبيرة ، وتلقيها بعفوية وبساطة ، هذا هو الصراع بين المثالية والواقعية ، المثالية حلم لم يتحقق ، والواقع حياة تدب على الأرض ، هو الناس والحركة والسلوك والمبادئ العفنة ، والجشع ، وسباق الضوارى . .

قال :

- «إنك تظهرين جانبًا من الحقيقة» .

- «أنا لا أعرف غير ذلك» .

- «لأنك لم تتبحرى فى العلم . .» .

- «كم واحد تبحروا من قريتكم» .

عاد لاستعراض القضية الشائكة مرة أخرى ، إن فى كفر أبو سالم عدد كبير من حملة الشهادات العليا ، وعلماء الدين ، والكوادر السياسية ، هل يمكن اعتبار هؤلاء جميعًا متبحرين فى العلم ؟؟ وإذا كانت الإجابة بنعم ، فما هو أثر ذلك فى فلسفتهم ومنهجهم فى الحياة ، يجب أن يعترف عبد المتجلى أنهم -برغم تحصيلهم العلمى- لا يختلفون فى التوجه عن أم صابرين ، فهم

مقيدون بسلاسل الوظيفة، يجدون في البحث عن دخل إضافي حتى يستطيعوا العيش بين نيران الغلاء المشتعلة، ولأنهم يخافون على أرزاقهم وأولادهم ومستقبلهم الضيق، فهم لا يتمردون أو يثورون، كلهم «عبد المأمور» حسبما يقال..

- «قريتنا يا أم صابرين اسمها «كفر كلام»، وهى لا تصلح كمثال عند ذكر التبحر فى العلم.. إن معنى التبحر فى العلم يا امرأة هو أن تعلمى.. وتعملى.. فى وقت واحد.. والقلة من العلماء هم الذين يفعلون ذلك، وبالتالى فإن المسألة ليست مجرد أعداد علماء أو شهادات أو مؤلفات، أنا لم أؤلف كتابًا.. لكنى يومًا تحركت بحثًا عن الحقيقة..».

قاطعته قائلة:

- «الحقيقة؟» الونش؟؟ لعنة الله عليه وعلى أيام الغبراء ابتسم فى مرارة:

- «الناس فى غفلة».

- «نائمون جميعًا، وأنت الوحيد الذى يشكو من الأرق..».

- «بعد الممات نوم طويل..».

استعاذت بالله عند ذكر الموت، وبدا على وجهها الكدر، تمتمت:

- «لماذا تقبلها غمًا . . تعال إلىّ . » .

أحاطته بذراعيها .

- «الدنيا حلوة يا عبد المتجلى . . » .

غمغم :

- «استغفر الله . . إن النساء شياطين . . » .

ضحكت فى براعة ، استطاعت أن تستل من رأسه خيوط الأفكار السوداء ، والتوترات المرهقة ، وعاد الدفء إلى جسده ، غاب فى عينيها الجميلتين ، رأى أشرعة الأحلام على شاطئ أزرق ، خاصة الأمواج فى سعادة ، لم تكن الأمواج قاسية قاهرة ، بل أخذت تنداح فى رقة ووداعة . .

وفى هذه الليلة أيضًا نام نومًا عميقًا ، دون أن يتعاطى قرصًا من الدواء ، أو كأسًا من اللبن الدافئ ، أو حمامًا قبل اللجوء إلى الفراش .

فى الصباح قالت باسمة :

- «يومًا ما ستكون سيد هذه القرية . . » .

- «أنا المضروب المهان الوحيد فيها؟؟» .

- «كان ذلك فى الزمن الغابر . . » .

- «لم تكد تمضى بضعة شهور. . والوزارة هى الوزارة. . فماذا تغير فى الدنيا يا أم صابرين؟؟».

- «أنت. . ».

- «لم أتغير. . ».

- «لكنى متأكدة. . ».

- «أنا أدرى بنفسى».

- «إن حولك أمورًا كثيرة تجرى. . ».

- «آخر من يعلم. . ».

- «العفو. . لكن عندما تصبح غنيًا، تكون الأقوى. . ».

هز رأسه فى حكمة ممتزجة بالسخرية:

- «هل ستمطر السماء ذهبًا، أم أن أمريكا ستلغى القروض التى تراكمت علينا. . أم أن. . ».

رفعت يدها ملوحة فى يقين وقالت بجدية:

- «إذا تكلم عبد المتجلى أنصت له الجميع، وإذا أمر أطاعوه. . وإذا دخل على الناس وقفوا له. . ».

اتسعت ابتسامته:

- «كيف، وأن بشر، وخُلقت من ماء مهين».

- «كلهم . . كلنا هكذا . . ولكنى أريد أن أقول لك إن بيتنا سيدخله التليفون . . » .

اعتدل فى جلسته وصرخ :

- «أتمزحين؟؟» .

أبرزت له الإيصال الذى يؤكد ذلك ، موقعًا عليه من أعلى سلطة مسؤولة عن التليفونات فى المحافظة ، وعبد المتجلى يعرف الفئات المستثناة من الدور فى توزيع الهاتف كالضباط والأطباء وكبار رجال السلطة ، وأصحاب الأعمال الضخمة وغيرهم ، وهو ليس فى العير ولا فى النفير .

وفجأة قال عبد المتجلى :

- «ولماذا التليفون بالذات؟» .

- «التجارة تحتاج إلى ذلك؟ .

- «أى تجارة ، وإمكاناتك لا تفوق قدرات بائع متجول» .

لم تلتفت إلى تعليقه اللاذع ، ومضت تقول :

- ونحتاج أيضًا إلى سيارة «نصف نقل» .

- «أنا لا أفهمك» .

- «دفعت المقدم . . والسائق هو الآخر موجود ، مجرد جندى أنهى فترة التجنيد الإجبارى . . بسطويسى بن خالك» .

تغيرت سحنته، وتوثبت شياطين الغضب من نظراته، قدم نحوها فى خطى ثابتة حاسمة، لولا بطنها المتكور لركلها بعنف ركلة تقضى عليها، ثم أمسك بخناقها، وجرها نحوه قائلاً وهو يكز على أسنانه:

- «أريد أن أفهم . . ».

لم تفقد سيطرتها على أعصابها، وقالت:

- «إنها مدخراتى، ، وأنا أبيع وأشترى».

- «تبعين وتشترين؟؟».

- «نعم . . فى الحلال، وأنت تعلم».

إن ما قالته يبرز حجم الأعمال التجارية التى تقوم بها، والأرباح التى تحققها، وهذا الذى يدركه الآن لا يتوافق مع هذه الفترة القصيرة التى مارست فيها نشاطها، ولا مع حركة السوق فى كفر أبو سالم، ولا مع العيون المفتوحة التى ترصد كل ما يجرى هنا أو هناك.

وضحكت أم صابرين وقالت وهى تبسط راحتها وتقبضها:

- «العمدة أصبحت رقبته فى يدى، وضابط النقطة رهن إشارة منى . . ورئيسكم فى المجلس القروى كالكلب لدى يقنع بالعظمة بشرط أن يكون فيها بقايا . . ».

هز رأسه كأنه ينفض عنه آثار نوم ثقيل:

- «هل أصابك الجنون، أم أنك تحلمين؟».

- «العالم كله سوق يا عبد المتجلى».

- «وماذا يقول الناس عنا. . ».

- «أشراف».

- «وكيف، ونحن. . ».

- «لا نغش ولا نسرق. . ».

قال ملوحًا بسبابته:

- «لا أصدق. . ».

- «ومع ذلك فإن أموالنا لا تتجاوز الخمسة آلاف».

- «من أين لك هذا يا امرأة؟».

- «اطمئن، فأنا بعيدة عن لعبة المخدرات».

- «والتموين؟؟».

هزت كتفيها قائلة:

- «التموين. . تموين. . والسوق الحرة. . حرة. . وكل شيء عندى بالقانون».

أخذ عبد المتجلى يلف ويدور فى الغرفة كالنحلة، لا يكاد يستقر به حال، أو يهدأ بال، ثم توقف فجأة وقال:

- «إذا كان للعمدة الحاج إبراهيم صوان بالذات صلة بشيء فسيكون مشبوهًا مائة فى المائة . . ».

- «ولماذا هذا الظن؟».

- «ولأنى أعرفه . . صهيونى النزعة والتصرفات . . ».

قالت فى غضب مفتعل:

- «استغفر الله يا رجل، الحاج إبراهيم رجل موحد بالله . . ».

ثم عادت تضحك وتقول:

- «ومع ذلك فالرئيس قد عقد معاهدة صلح وسلام مع إسرائيل . . ».

***

ألقى عبد المتجلى بجسده المنهمك على الأريكة، ها هى الحيرة تداهمه، والقلق ينقض عليه بأنيابه الشرسة، وها هى نذر الأرق تلوح له فى الأفق، ماذا يعنى ذلك كله؟ هل كتب عليه أن يعيش العذاب والخوف والحيرة؟».

ومتى ينعم بالأمن والسلام والاستقرار؟ لا الونش عاد، ولا أيام الصفاء دامت، ولا الدنيا تغيرت إلى الأفضل.

قال مناجيًا نفسه:

- «وماذا يقول الناس عنى الآن؟».

ردت عليه وهى فى الصالة :

- «كل خـيـر . . وإن لم تكن تصـدقنى فلتـرشح نفسك فى الانتخابات . . الجميع سوف ينتخبونك . . وستسمع أغنيات الشباب والصبايا والخضراء فى الشوارع وهم يرددون :

حـبـيـبـكم مـيـن؟

أبـو مـنـصـور

نـائـبـكـم مـيـن

أبـو مـنـصـور

فـلـتـنـتـخـبـوا

أبـو مـنـصـور

قال عبد المتجلى فى دهشة :

- «مَنْ هو «منصور» الذى تتحدثين عنه؟» .

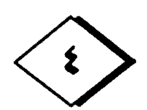
- «ولدنا الذى لم أضعه بعد . .» .

قال محملقًا :

- «هل قررت يا أم صابرين أن تلدى ولدًا، وأن تسميه منصورًا؟؟» .

- «ليس هذا بكثير على الله . .» .





على الرغم من البرودة التى سرت فى جسده إلا أنه كان مستغرقًا فى أفكاره، ولهذا لم يفكر فى إحكام الغطاء حوله، وإلى جواره جلست أم صابرين، لقد أصبحت تجد هى الأخرى صعوبة فى النوم ممددة، نظرًا لامتلاء بطنها، وشعورها بضيق فى التنفس، ولهذا كانت تفضل النوم جالسة أو متكئة على عدد من الوسائد، ومما يثير الغرابة فى نفس عبد المتجلى أن امرأة على الو نىع تتمتع بنشاط عجيب فهى تهتم بمنزلها، وتطبخ، وتواصل عـ لباتها التجارية بهمة، لقد أصبحت فى الدقيق والذرة والأرز وعا نـ المواشى، والقمح، وتقاوى البرسيم، بالإضافة إلى الصابو : والتوابل والسمنة والزيت والجبنة القريش. . ولا بأس من أن تشترى وتبيع صفقات من الأوز والدجاج والبط والحمام. . ومن عجب أيضًا أنها نقلت من المركز حمولة من السماد ربحت فيها مبلغًا لا بأس به. . تنهد عبد المتجلى وقد استلقى على ظهره، ووضع راحتيه رأسه وقال:

- «يقولون إن جدى كان من أهل الخطوة».

- «كيف؟؟».

- «زعم رجال القرية الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج فى الأراضى المقدسة، أنهم رأوه هناك يؤدى الشعائر فى الوقت الذى يعلم الجميع أنه لم يغادر كفر أبو سالم.. الذين ذهبوا رأوه هناك، والذين بقوا هنا رأوه.. أتصدقين؟!».

رمت شفتيها مفكرة وأجابت:

- «ولِمَ لا؟؟ إن الله قادر على كل شىء».

- «نحن اليوم لا نصدق إلا ما نراه ونلمسه..».

- «قد يكون جدك من أهل العلم والولاية..».

اعتدل، وأخذ يحدثها عنه، اعترف لها أن جده لم يكن عالمًا، بل كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، عاش كمن يهيم فى حلم أو غيبوبة.. وهكذا قالوا.. أنا لم أره.. رووا لى أنه كان يلبس جلبابًا رخيصًا على اللحم، صيفًا وشتاء، ويمشى حافيًا، ويميل على أى بيت أو يجلس فى أى موقع ليتناول لقيمات.. لم يشته طعامًا بعينه.. كان يقول كلمات مفهومة أحيانًا، وغير مفهومة أحيانًا أخرى.. ومن ضمن ما أخبروا به أن بعض من حاولوا إيذاءه أو السخرية منه تعرضوا لعقاب ظاهر من الله، فأتوا إليه راغبين

معتدين عما بدر منهم، وطلبوا منه السماح . . وأخبرنى رجل معمر قضى منذ بضع سنوات أنه كان يتوقع بعض الأحداث ويحذر . . لكنى يا أم صابرين مؤمن أنه لا يعلم الغيب إلا الله . . ترى أكان ذلك -إن صحت الرواية- بناء على استقراء ودراسة كما يجرى فى العالم اليوم من توقعات تصح أو تخطئ؟؟ والناس عادة لا يتذكرون إلا ما يثير الغرابة، ويغذى الخيال . . ومن الحكم التى تروى عنه مثل يردده أهل القرية خاصة المسنين منهم كان يقول :

«لقمة عَيْش

وخَلَقَة خَيْش

يفوّتوا اليومين اللّى مفيش

ولا عليش . . » .

كلمات مسجوعة باللهجة العامية؛ لأن جدى لم يقرأ شيئًا عن سيبويه أو علم النحو والصرف، لكن ألا تعتقدين أنها حكمة عميقة فعلاً؟؟» .

نفخت أم صابرين فى شىء من الضيق، لعلها ظنت أنه يعرض بنشاطها التجارى، ولهفتنها على تحقيق الربح، وجمع المال، وإيمانها المطلق بأن المال هو القوة، وأنه هو الحماية، وأنه كلمة السر التى تفتح الأبواب المغلقة، وتحل كل طلاسم ورموز الوجود .

- «لماذا لا تتكلمين؟ ألا يعجبك ما قال؟».

- إنه حق، لكن هذا لا يمنع من أن نستمتع بخيرات الله.

أنا شخصيًا لا أستطيع أن أعيش فى هذا البرد بفستان على اللحم، ولا أرضى أن أتسول اللقمة..».

هز رأسه قائلاً:

- «أجل، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] صدق الله العظيم.

وبدا عليها الاهتمام فجأة وقالت:

- «هل تزوج جدك!!».

- «بالطبع.. وإلا فكيف جاء أبى.. وإخوتى؟».

ضحكت من أعماقها وقالت:

- «أرأيت؟؟».

- «وماذا فى ذلك؟».

- «على الرغم من انجذابه كان يفهم فى مسائل النساء..».

- «بالطبع.. كل الكائنات تعرف ذلك بالغريزة..».

- «لو كنت مكانه لأضفت إلى حكمته الشهيرة كلمتين أو ثلاث..».

التفت إليها قائلاً:

- «وماذا؟؟».

- «لقمة عيش.. وخلقة خيش.. وساعة طيش.. يفوتوا اليومين اللى مفيش.. ولا عليش..».

قال عبد المتجلى بحزم:

- «احترمى ذكرى الرجل.. إن كل عمل يقوم به -التقي الصالح- فى حدود الشرع يعتبر عبادة..».

- «حتى الـ..».

- «نعم.. حتى الـ.. أيتها الخبيثة إنها المعاشرة الزوجية..».

مالت على جنبها، ووضعت رأسها على الوسادة وهى مستغرقة فى الضحك.. وسرعان ما استسلمت للنوم، وعندما استيقظت فى الصباح لم تجده إلى جوارها، لم تعر الأمر اهتمامًا بذكر، لكنها شعرت بقلق حينما أخبرتها حماتها «رمانة» أن عبد المتجلى قد سافر، إلى أين؟ لا تعلم، وتوقفت أم صابرين أنه لا بد عائد بعد يوم أو يومين، لأنه لم يخبرها أو يستأذنها، ولأنها على وشك الوضع، وهى فى حاجة ماسة إليه من شتى النواحى، لكن قلقها قد ازداد عندما جاءتها الأخبار بأن عبد المتجلى كان منهمكًا فى الأيام الأخيرة فى إعداد بعض الأوراق التى تتعلق بمؤهلاته وخبراته، بل

إن البعض زعم أن عبد المتجلى كان يخطط للسفر إلى الخارج، وأنه كان فى انتظار عقد عمل، مما أثار جنونها، وأزعج استقرارها، وأخذت تتلقف أخباره من هنا وهناك حتى تستطيع التيقن من أى شىء، فَتكُفُّ عن القلق والبحث، وتنجو من عذاب الحيرة . . أخبرها حضرة العمدة أنه لم يستعن به فى شىء على الإطلاق، لكن سكرتير مجلس القرية أكد لها قد أخذ شهادة خبرة، وعلق صديقه التاجر المرح قائلاً:

- «لعل الحنين إلى الونش المفقود قد عاوده مرة أخرى . . إن عبد المتجلى مولع بالبحث دائمًا عن أى شىء . . ولو لم يجد شيئًا حقيقيًا لاخترعه . . وهنا تظهر لنا العلاقة الوثيقة بين موهبته فى فن قصص الأطفال . . وعشقهم لحديثه . . ».

شيخ المسجد دعا لعبد المتجلى بالتوفيق والستر، وقال لها:

- «لم يفصح لى عن نيته يا أم صابرين . . لكنه فى الآونة الأخيرة كان يتناقش معى حول مفهوم الهجرة . . وفلسفة الزمان والمكان . . والخروج من عبودية العادة، وتكسير أسوار العزلة، وتحطيم قيود السكون . . ».

- «لا أفهم شيئًا سوى أنك لا تعرف».

- «بالضبط . . هو ما تقولين . . ».

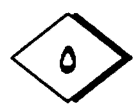
كانت واثقة تمام الثقة أنها ستجده، أو أنه سيعود، وهى لديها من الإمكانات والوسائل والأفكار ما يجعلها قادرة على تنفيذ ما تريد، وأين سيذهب؟؟ لو اضطرت إلى استخدام المخبرين فستفعل دون حرج، هذه التصرفات الصبيانية يجب أن يكون لها حد، وعبد المتجلى -حسبما ترى هى- لابد أن يكون على مستوى المسئولية فى هذه الأيام الحرجة الدقيقة، إن لديها مالاً وأعمالاً وعملاء وعلاقات، وإذا لم يتسلح باليقظة والوعى و الدهاء فسوف تذهب جهودها هباءً، وستنهشها الذئاب، وإذا كان المال والعقل هما عماد نشاطها وتجارتها، فإنها تحتاج إلى القلوب المخلصة، كل عملائها مشكوك فى إخلاصهم، وهى مؤمنة بذلك، وما يربطها بهم هو المنفعة والحفاظ على نموها، ولا شىء غير ذلك، لكنها فى حاجة ماسة إلى عبد المتجلى، الجوهرة الوحيدة النقية التى تعرفها، ويجب عليها أن تعمل بكل ما تملك من قوة ومواهب على ضمه إلى صفها، وهى تنتظر اللحظة التى يضع يده فى يدها، ويمضيان معًا على طريق واحد. .

أم صابرين محنكة مدربة، ولا تريد أن ترغمه على شىء، فهو عنيد، ويستغرق فى أحلام اليقظة، ويعيش أفكارًا وأحوالاً غريبة، كثير منها لا يصلح لهذا الزمان، ربما يكون قد ورث عن جده بعض صفاته على نحو خاص. . يستطيع عبد المتجلى إذا سمع كلامها،

واقتنع بفكرها أن يكون هو الآخر من «أهل الخطوة»، لكن ليس بالأسلوب الذى اتخذه جده فى الزمن الغابر . . أيام جده كان الحجاج يسافرون على ظهور الإبل، ويقضون الشهور يحلمون بالوصول إلى أرض الحبيب . . لكن الطائرة اليوم تصل فى أقل من ساعتين . . وأهل الخطوة الآن كما تعتقد أم صابرين هم رجال الأعمال النابهين القادرين على تحقيق أكبر قدر من الربح فى أقصر وقت من الزمن، وبأيسر السبل، وأكثرها أمنًا . . ولا بد أن يخرج عبد المتجلى من عالم الأحلام والخيال . . إن ضاع «ونش» فيجب شراء ونش آخر، حتى لا تتعطل الأعمال، والأرباح التى يحققها الأفراد والشركات تكفل التعويض عما سرق، فاللصوص موجودون منذ الأزل، ولم يردعهم القتل ولا قطع اليد ولا السجن، وكانت أم صابرين واثقة أيضًا أن مرونة فكر عبد المتجلى، وحبه لاجتياز المخاطر والخوض فى الجديد من التجارب سوف يجعله يومًا ما يستجيب لنداءاتها الصادقة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تستعجل ذلك اليوم الذى يوقع فيه الاتفاق معها، إلا أن القلق ساورها عند سفره المفاجئ . .

ترى متى وكيف يعود؟؟

●●●



ضاقت به السبل، إنه لم يعد قادراً على اتخاذ القرارات الحاسمة، حينما كان وحده كان ينطلق كالمهر فى الأرض الخلاء، يتخيل أن له أجنحة كالنسور تشق أجواز الفضاء، أما اليوم فإن جسده ثقيل، وأفكاره تتحرك بصعوبة، وتصطدم بالأحجار والأشواك وشظايا الزجاج المتناثر، لم يعد وحده.. هناك زوجه وابنتها.. وهناك الجنين الذى يتحرك إلى الدنيا على مهل واستحياء، ويحاول أن يكمل دورته حسبما أراد الله، ولا يهتم بالقلوب المتلهفة، ولا النداءات العاشقة، وأغانى الهدهدة والترقيص التى تترنم بها أم صابرين، ثم هناك أمه.. تراثه وجذوره.. وأخته التى يجب أن تتزوج.. والأرض والبهائم والوظيفة.. ولقمة العيش.. ورجال الأمن..

وعندما تثقل الحركة، وتركد الأفكار، وتتراكم عبارات التحذير، تصبح الحياة سقيمة ثقيلة مملة، وتثور في الأعماق دعوة إلى التحرير.. وعبد المتجلى كثيراً ما ينطلق بدافع التحرر مما يثقل ضمير

وعقله وكاهله لكنه قد لا يعرف المسار الصحيح، وتأتى النتائج على النقيض، وقد يقدم على تصرف خاطئ طائش يندم عليه، فإذا به ينتهى إلى فائدة لم يتوقعها ، المشكلة بالنسبة له فى كثير من الأحيان، إنه يريد الخلاص من هذا المأزق أو ذاك، ولا يعلم أنه قد يقع فى مأزق جديد أشد خطرًا، ولا يندم عبد المتجلى على ما يصيبه من عنت وإرهاق، فالأساس ألا يقيم على ذل، أو يستسلم لأمر يأنف منه . . يريد الفرار من ألسنة اللهب الحارقة، فيقذف بنفسه فى اليم العاصف الأمواج دون أن يعرف شيئًا عن قواعد السباحة أملاً أن يجد قشة- كتلك التى قصمت ظهر البعير- ليتعلق بها .

لم تطل الحيرة، لأن جميع البيوت إذا ما أغلقت فى وجهه فسوف يجد بيت الله مفتوحًا دائمًا . .

- «بيومى أيها الحبيب . . هل ما زلت حيًا ترزق؟؟» .

بالأحضان التقيا، وتجسدت الذكريات التى لم تمض عليها زمن طويل . .

- «هل ما زال دخول المرحاض عندكم برسوم؟؟» .

ضحك بيومى، وأخذ يتحسس لحيته ويقول :

- «ارتفعت أسعار كل شىء . . » .

تنسم ريح الجنة فى ساحة مسجد السيدة، هذا العبير الحلو

ينعش فؤاده، ويخفق الكثير من أحزان نفسه، الكساء الأخضر والضريح، وامرأة تزرف الدموع، وفتى شاحب نخيل يضرع إلى السماء بعينين ذابلتين، لعله يأمل فى الشفاء، وفى أحد الأركان رجل أشيب، والمصحف الكبير على حامله الخشبى مفتوح. وهو يتوطح خلف وأمام فى غياب يكاد يكون تامًا عن الدنيا وما فيها، وعلى مقربة منه بضعة رفاق ممن أصبحوا فى مرحلة التقاعد.

قال بيومى:

- «أتبحث عن ونش جديد؟؟».

ضحك عبد المتجلى وقال:

- «لعلى جئت لأسرق ونشًا».

- «اللصوصية فن..».

- «وأنا لا أمتلك هذه الموهبة؟؟».

- «ولا علومها..».

- «كيف يا بيومى؟؟ إنهم يدربون اللصوص فى مدارس خاصة يؤسسها كبار النشالين»..

- خبطة بيومى على كتفه وقال:

- «هؤلاء صغار اللصوص.. ونشاطهم فى مجال السرقات الصغيرة..».

لم تغب هذه الحقيقة عن فكر عبد المتجلى، فهو يعلم أن هناك من يحصلون على الملايين دون أن يتدربوا فى مدارس النشل، لديهم مؤهلات دكتوراة وماجستير ودبلومات عليا فى مختلف الفنون والعلوم، وهم يستخدمون هذا العلم الحديث فى الاستثمار الحرام، وامتصاص الدماء، واستنزاف التائهين والمقهورين والجهلاء.

- «الرجل يا عم بيومى اقترض من البنك أربعين مليونًا دون ضمانات وهرب.. لم تستطع الحكومة، ولا البوليس الدولى أن يفعل له شيئًا..».

- «هذه أمور عادية..».

- «أجل..».

- «وأنت تستكثر علىّ ربع ريال لدخول المرحاض..».

كان عبد المتجلى يفكر جديًا في السفر إلى الخارج، والأمر ببساطة هو أداء العمرة فى بيت الله الحرام، وذلك أمل حلم به طويلاً، ثم بعدها يضرب فى أرض الله الواسعة بحثًا عن عمل، الناس يقولون إن فرص العمل متوفرة لمن يريد بشرط ألا تصر على تخصصك، أو تفرض مؤهلاتك على السوق، ربما تتوفر له وظيفة فى مزرعة دواجن، أو دكان بقالة، أو مدرسة أهلية، أو شركة للمقاولات يعمل فيها محاسبًا أو مراقبًا أو كاتبًا.. أو حتى حمالاً.. سواقًا.. إذا لم تشترط فستجد حتمًا عملاً..

وعبد المتجلى رزقه الله التواضع والعفة والصبر، وهذه مؤهلات لا بأس بها للنجاح، لكن مشكلته الكبرى هى أفكاره، وجرأته فى التعبير عن نفسه، وإذا سار على هذا النحو، فسيطرد من أى وظيفة فى أى دولة؛ لأن هناك شرط خطير لاستمرارية العمل ألا وهو «التكيف مع الجو». والرضى بما هو قائم.. وتنفيذ الأوامر.. إن التدرج الوظيفى يقتضى ذلك، فليس من المعقول أن الذى يحمل الطوب على ظهره فى موقع البناء يكون له الحق فى رسم سياسة الشركة أو التعديل فيها..

توقف عبد المتجلى عند هذه النقطة قليلاً، لكنه استبعد أن يكون الأمر على هذا النحو من الجمود والتسلط؛ لأن الحوار الحر البناء يفيد ولا يضر، وماذا فى أن يستمع الإنسان لوجهة النظر لدى الآخرين ثم له بعد ذلك أن يقبلها أو يرفضها؟؟

وأخذ عبد المتجلى يجوب أسواق العمالة، فوجد فرصًا فى الأردن والعراق ودول الخليج الست، وبالطبع كانت هناك مكاتب غير رسمية تتقاضى العمولات حسب الوظيفة المتوقعة والمرتب ومدة العقد وغير ذلك من الأمور، لكن الأمر الحتمى هو أن يدفع عبد المتجلى مبلغًا يوازي مرتب شهرين حتى تتيسر له الأمور ويسافر إلى بلاد الله الواسعة بحثًا عن حياة جديدة نظيفة يعرق فيها ويكافح ويأمن على نفسه.. لكنه للأسف الشديد يبدأ رحلته بأسلوب لا

يروق له، فضلاً عما يكتنف المستقبل من غموض وشكوك، فالمدينة ممتلئة بالنصابين والكذابين في كل حى من أحيائها سواء فى القاهرة العتيقة أو مصر الجديدة، وجو الثقة يكاد يكون منعدمًا، والناس يتعاملون وكأنهم يروجون للمخدرات، ما الذى يجرى فى العالم؟؟ إن عبد المتجلى يشعر أن الخناق يضيق حول عنقه رويدًا، وها هو يقترب أو يكاد من حافة اليأس. . واليأس عند عبد المتجلى ليس حالة موات أو سلبية ولكنه انفجار مدمر لا يعلم إلا الله مداه. .

قال له صديق التاجر ذات مرة:

- «أنت يا عبد المتجلى كالقنبلة الموقوتة التى لا يدرى أحد متى تنفجر».

ولم يكن هناك بد من أن يتجمل عبد المتجلى بالصبر، ألم يفكر فى إنشاء حزب خاص للصبر؟؟ وكان السطح الذى يسكن فيه بيومى غير ملائم للنوم عليه فى جو البرودة المتزايد، ولهذا ذهب عبد المتجلى إلى شقة أم صابرين القديمة المغلقة ليستقر فيها، على الرغم من ضيقه بالبقاء وحيدًا فيها، كما أن الكثيرات من الجيران كن يسألنه عن زوجه، وهل تم الوضع أم لا؟ ولماذا لم تأت لزيارتهن؟ وما هو عنوانها؟؟

وأحيانًا كان بيومى يأتى إليه ليقضيا معًا بعض الوقت، وقد يبيت معه، لكن ارتباط بيومى بالمسجد لم يتح له فرصًا كثيرة

لذلك، ومع مرور الأيام أدرك أن مجرد الخروج من مصر تكتنفه صعوبات على نوع آخر، فهو مثلاً موظف حكومة، ولكى يغادر من المطار لا بد أن يحمل معه تصريحًا من جهة عمله، وشهادة إعفاء من التنجيد وتصريحًا آخر للعمل فى جهات أجنبية، حتى حجز تذكرة السفر يحتاج إلى بضعة مئات من الجنيهات مضافة إلى الثمن الرسمى حتى يجد مكانًا على الطائرة فى الوقت المناسب، وأعلمه الخبراء أنه لا بد وأن يغير البطاقة العائلية حتى يسجل فيها أنه بدون عمل، وأن هذا التغير يكلفه مبلغًا آخر من المال فضلاً عن أنه تزوير فى أوراق رسمية قد يؤدى به إلى السجن والفضيحة مع تناقضه مع ما يؤمن به من مبادئ طالما تغنى بها وحلم بتنفيذها، إنه فى موقف امتحان، وقد يجد من الأسباب القوية ما يجعله يرتكب هذه الحماقة أو أشباهها، لكنه سوف يزداد وضاعة وخيبة على مر الأيام، وهو يأنف من ذلك ولو كلفه حياته.

ذهب يستروح نسمات الأحباب فى مسجد الحبيبة، وقصد شيخ الخلوة الذى أصبح له فى قلبه مكانة رفيعة.

- «هأنذا أعود مثخنًا بالجراح».

- «كنت واثقًا أنك ستعود يا عبد المتجلى».

- «لماذا؟؟».

- «لأنك دائم البحث، دائم السؤال».

- «أريد أن أخرج من هذه الدنيا».

- «بل تريد ولا تريد، وتلك هى المشكلة . .».

- «أتعذب يا مولانا».

- «لكم يحلو العذاب، فى رحاب الأحباب».

- «أين أتجه؟؟».

- «وهل هناك سواه؟؟».

- «سبحانه . . أعرف أنه معى دائمًا».

- «إذن شرِّق وغرِّب . . ولا تخف . .».

- «حدد لى الاتجاه».

- «أنت به أعلم منى».

- «لكن يا سيدى الحيرة تمزقنى».

- «لأنك حى . . تكف عن السؤال عندما يكف القلب عن الخفقان».

- «إذن سأظل هكذا طوال عمرى».

- «ولو توقفت لأصبحت فى عداد الموتى . .».

- «آه . . وألف آه . .».

- «عدْ إلى أمك يا ابن رمانة . . » .

- «أمى؟؟» .

- «فى أحضانها الحب . . والزرع الأخضر، والأمن والسلام . . » .

- «لكننى خائف . . فكيف يجتمع الخوف والأمان؟» .

هز رأسه وقال :

- «تذكر موسى وهارون وفرعون . . أتذكر قول الله : ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٥ ، ٤٦]، هل فهمت يا عبد المتجلى؟ أمك هناك . . والأرض أرضك . . والناس أهلك» .

طأطأ عبد المتجلى رأسه وقال :

- «حتى زوجتى» .

- «ماذا عنها هى الأخرى» .

- «جرفها التيار . . » .

- «لا تقذف المحصنات الغافلات يا عبد المتجلى» .

«استغفر الله . . إنها طاهرة الذيل، لكنها . . » .

- «تختلف معك فى شؤون الحياة» .

- «بالضبط يا سيدى».

أخذ الشيخ يهتز ويرتل:

- ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥].

- «لكنها زوجتى..».

- «لم يزل أمامكما طريق طويل للتعلم والخبرة».

حاول عبد المتجلى أن يرد، فقاطعه الشيخ ملوحًا بيده وقال فى حزم:

- «اذهب.. ولا تضيع وقتك يا ابن الدنيا..».

- «لم أرغب فى شىء من ذلك..».

- «كذبت.. اذهب..».

دارت به الأرض، تحامل على نفسه، وخرج منهوك القوى، لاهث الأنفاس، أعشى البصر، كانت شمس الميدان ساطعة مبهرة، وأخذ يقطع الطريق إلى مسكنه مشيًا على الأقدام، غير عابئ بالضجيج والزحام.

حينما وقف على باب الشقة وأخرج المفتاح، سمع حركة بالداخل، تنبهت أعصابه، وسرعان ما وجد أم صابرين أمامه بلحمها وشحمها وبطنها المتكور.

- «مفاجأة!! أليس كذلك؟؟».

- «كيف أتيت؟؟».

- «وكيف هربت منى وأنا فى هذا الوضع؟؟».

- «لم أقصد..».

- «اسمع يا سيدى.. قالت الداية إن فى بطنى توأمًا.. وطبيب الوحدة الذى لم يكتشف ذلك منذ البداية قال بصراحة إن ولادة التوأم تحتاج إلى براعة ومهارة ولا يريد أن يغامر.. وأرشدنى إلى طبيب معروف هنا..».

- ثم ضحكت ضحكة ذات معنى، وقالت وهى تجره من يده إلى الداخل:

- «اثنان يا عبد المتجلى.. تصور.. الناس يتحدثون عنك فى كل مكان بكفر «أبو سالم» عبد المتجلى فارس..».

ابتسم عبد المتجلى في سعادة، حتى لكأن همومه كلها قد محيت فى لحظة وقال:

- «اثنان دفعة واحدة.. لقد دمرنا سياسة تنظيم النسل، ولعل هذا يجر علينا مشاكل جديدة من مباحث أمن الدولة..».

- «الرزاق هو الله».

- «فعلاً، والثروة البشرية هى عماد الثروة المادية».

- «ربما لا أفهم تمامًا ما تقول، ولكن الأولاد عزوة..».

ابتسم مرة أخرى وقال:

- «العدد فى الليمون».

- «والليمونة أصبحت بربع ريال».

اضطجع عبد المتجلى على أريكة فى الصالة العتيقة، كان البشر يتجلى على وجهه وفى عينيه، كل شىء فيه تغير لهذا النبأ البسيط، وعندما سألته عما إذا كان مصرًا على السفر إلى الخارج، أجابها دون اكتراث قائلاً:

- «لا سفر ولا حاجة».

- «أموال الدنيا كلها لا تعوضنى على فراقك..».

ارتاح لهذه الكلمات النقية الصادرة من القلب، وسمعها تقول:

- «ليس فى بلادنا من يموت جوعًا».

- «قد يكون هذا صحيحًا لكن هناك من يتسولون، ومن يجدون لقمة العيش بصعوبة، ومن يعيشون على الكفاف.. ومن يبيعون كرامتهم وشرفهم حتى لا يموتوا من الجوع..».

قالت فى إصرار:

- «الشرفاء لا يفعلون ذلك..».

وعندما علم عبد المتجلى أن الولادة قد تتكلف ما يقرب من مائة جنيه شهق فى ذعر، وعادت إليه الحيرة والقلق، لكن أم صابرين طمأنت ووضعت فى يده ثلثمائة جنيه دفعة واحدة، فازدادت دهشة وهتف:

- «من أين؟؟».

- «من علوم الله..».

- «أعلم، لكن..».

- «احمد ربك واسكت، وتأكد أنى لم أسرق».

- «التجارة؟؟».

- «ولم لا؟؟».

- «سوق سوداء يا أم صابرين، وأنا أخاف على أولادى».

- «سوق فقط.. لا سوداء ولا بيضاء.. أنت إن نزلت الآن إلى الشارع فستشترى جهازًا نهارًا بأغلى من السعر الذى أبيع به فى كفر أبو سالم.. ألا تكف عن هذه الشكوك؟؟».

عندما ذهبت إلى الطبيب فى عيادته الخاصة طمأنها وأخبرها أنها قد تحتاج إلى عملية «قيصرية»، والتكلفة فى هذه الحالة قد تصل إلى مائة جنيه بما فيها أجر طبيب التخدير، وإقامة ستة أيام، ولما خيّرها

الطبـيـب بين إجـراء الـولادة فى عـيــادته، وإجـرائهـا فى إحـدى مستشفيات الحكومة ردت بحزم:

«لا يا بك.. مستشفيات الحكومة فيها إهمال.. والأطباء الجدد يتمـرنون فينا وأيضًـا لا بد من البحث عـمن يتوسط لنا هناك توكل على الله..».

- «إذن سيتم الوضع الليلة..».

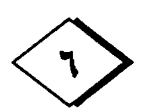
انهمرت دموع عبد المتجلى فجأة، لكن أم صابرين كانت هادئة مبتسمة لا يبدو عليها أى أثر للخوف أو التردد.

قالت:

- «لا أريد أن أرى دمـوعك الغـالية يا عـبـد المتـجلى أفندى، أنا بخير.. وعمر الشقى بقى.. اترك الأمر لصاحب الأمر..».

جففـ دموعه، ثم ذهب ووضـع مائة جنيه تحت الحساب، وكم كانت فرحته، عندما تمت عملية الوضع دون جراحة، وأشرق على وجوده طفـلان جـميلان منصـور ومندور.. لكن منصـور نزل إلى الدنيا قبل شقيقه مندور ببضع دقائق..

●●●



أصرت «أم صابرين» وقد وضعت ولديها بالسلامة، وعادت إلى عش الزوجية، أن تحتفل بهذه المناسبة السعيدة «يوم السبوع» احتفالاً يليق بعظم المناسبة، ووضعت بنفسها برنامج الحفل، وهو خليط عجيب من المشاهد والأفراح الشعبية، كما قررت أن يتم ختان منصور ومندور وسط الذبائح التى توزع على الفقراء والأحباب، والأغانى الشعبية، والطبول والمزامير، ورقصات الخيل، وأصرت أيضًا أن يحتفل دراويش القرية على طريقتهم الخاصة بأن يقرأوا «الصمدية» ألف مرة، وأن يترنموا بالمدائح النبوية، واعترض عبد المتجلى بشدة على هذا البذخ، وذلك الأسلوب المثير فى التعبير عن السعادة، ثم من أين له بالمال الذى يغطي تكلفة ذلك كله؟؟

وعلى الرغم من أن عبد المتجلى يعرف تمامًا نشاط زوجه التجارى، والأرباح التى تحققها، ولكنه لم يكن على بينة كافية بالأرقام الحقيقية التى تعبر عن هذا النشاط، وتظهر حجمه، لكن أم

صابرين أكدت له أنها على استعداد تام للنفقات المطلوبة، فأمسك بطوقها وقال فى دهشة:

- «أخبرينى ماذا تفعلين؟؟».

وضاع السؤال فى وسط الزغازيد التى تطلقها أخته «بدرية» وأيضًا أمه العجوز رمانة التى كانت زغرودتها مرتعشة واهنة، وانفرجت أسارير عبد المتجلى حينما رأى أمه تلبس جلبابًا أسود من القطيفة الفاخرة، وأخته ترتدى ثوبًا حريريًا يليق بمقامها، وصمت عبد المتجلى برهة ثم قال مستسلمًا:

- «إن ما يسمح به الشرع هو العقيقة لأنها سنة أوصى بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه».

قالت أم صابرين:

- «وما العقيقة؟».

قال:

- «أن يذبح للولد بعد الولادة خروفان، وللبنت المولدة خروف واحد».

- وإذا كان المولود توأمًا.. ولدين.

فكر لحظة وقال:

- «قياسًا على ذلك نذبح أربعة خراف».

أردفت قائلة:

- «وظنى أن الشرع لا يمنع الأفراح..».

- «لكنه لا يقر مزامير الشيطان».

- «أى شيطان تقصد يا عبد المتجلى.. لن تحضر الراقصات ولا المغنيات الخليعات..».

من الأمور المذهلة أن حضرة العمدة «الحاج إبراهيم صوان» حضر بنفسه فى مساء ليلة الفرح يحيط به نخبة من الخفراء وقدم التهانى لعبد المتجلى وحرمه، وكان هذا مثار دهشة الجميع، بل ودفع «النقوط» للحلاق الذى قام بالختان مرتين، واحدة لمنصور والأخرى لمندور.

صديقه التاجر أخذ يقهقه ويقول:

- «لو أنجب عبد المتجلى خمسة عشر توأمًا لأصبح يملك أكبر «قوة ضاربة» فى كفر أبو سالم».

وعلق عبد المتجلى فى سعادة قائلاً:

- «لم تعد القوة بالعدد ولكن بالتكنولوجيا.. لو جاء أبو زيد الهلالى اليوم وفى يده سيفه لحبسوه فى التخشيبة، ولأخذ حكمًا لا يقل عن ستة أشهر.. الناس يحاكمون الآن بسبب حيازة سكين «قرن غزال».. هذا عصر الصواريخ أرض أرض.. وأرض جو..».

لكن شهبندر التجار أصر على فكرته قائلاً :

- «كفر أبو سالم لم يزل يعيش فى عصر «الهلالية» ، والناس لا يتغنون بملاحم «مونتجمرى» أو «روميل» ثعلب الصحراء لكنهم ينشدون على الأرغول قصة عنترة وعزيزة ويونس والزير سالم . . » .

زم شيخ المسجد شفتيه وقال :

- «ألا إن القوة هى صدق الإيمان ، وكبح نزوات النفس . . » .

كان اليوم الثانى للأفراح مخصصًا لمطربين شعبيين شهيرين فى المنطقة هما «قمر» و «أسمهان» ، أما قمر فقد كان فتى أسمر طويل القامة على جانب من الوسامة لا يخفى ، وكانت «أسمهان» فتاة جميلة فى العشرينات من عمرها جميلة الصوت ، وكلاهما يجيد إلقاء المواويل ، وطرب الفلاحون لسماعهما أيما طرب ، وعاشوا وقتًا جميلاً نسوا فيه مشقة الأيام ، وصراع الحياة فى الحقول ، وضوائق العيش فى هذه الحقبة الثقيلة ، وقد كان يشاع أن «قمر» ينوى الزواج من «أسمهان» ، ولهذا كان لاجتماع هذه الليلة نكهة خاصة ، غير أن عبد المتجلى اعترض فى البداية على وجود أسمهان باعتبار أن صوت المرأة عورة ، وأن أغانى الحب والهيام لا تليق ، إذ إنها تشيع بين الناس الفسق ، وتحرضهم على الانصراف إلى ملذات الحياة ، وترك ذكر الله ، لكن البعض قدم له بعض الفتاوى التى تبيح

الغناء إذا لم يكن فيه خلاعة أو إثارة للشهوة، ولهذا اكتفى عبد المتجلى على مضض بأن تلبس أسمهان لباسًا شرعيًا . .

وهاج الجمع وماج حينما قالت أسمهان:

عـــجـــبى علـى نســر جــارح فى العـــلالى طار

مـــالوش مـــثـــيل فـى البـــرارى وخـــد له

فالسحايب دار

عـــاشـق نجـوم الســـمـــا، والبـــدر، والنســـمـــة

لا يوم يـطاطى ولا يرضـى بعـــيـشـــة العـــار...

لكأن الناس قد جن جنونهم، وكثيرون منهم ترجموا كلمة البدر بأنها تعنى الحبيب قمر . . ولم يطل بهم التفكير، إذ إن المفروض أن يرد قمر عليها بغنائه، حتى تستمر السهرة إلى نهايتها، وقال:

عـــجـبى علـى بنت بيـــضـة جت فـى صـبـــيـحـــة

عـــيـــون غـــزالة رمـــتـنى بســـحـــر جـنيـــة

أنا قلـت مين العـــروســة؟؟ تغـــمـــزوا الـعـــزّال

يا مـــيت ندامـــة ويـا فـــرح العـــدا فـــيـــه..

واشتعل الحماس، ونسى الفلاحون من أصحاب الوقار وقارهم، وأخذوا يصيحون إعجابًا وولهًا، ويرفعون أيديهم إلى السماء،

ويدبون على الأرض انسجامًا، وأحيانًا يصفقون على أنغام الأرغول والناى، وعادت أسمهان تقول:

على جـبين الحـبيـب كـتـبـوا الهـوى غـلاب

والحب اسـمـه الهـوى مـوعـود به الأحـبـاب

لازم نصـيـبك يصـيـبك أمـر رب الـكون

منقـوش فـى قلب الحـبيب حتـى ولو كـان شـاب

وتنطلق زغاريد النساء، وتعلو كلمات الإعجاب والترحيب، وينظر إليها «قمر» بعينى صقر، ثم يهتز فى طرب ويشير بيده فيخفت الصياح، ويغنى فى اندماج . .

الـعـشق نـاره لـهـيب، ولـكـن لذتـه جنـه

واحنـا الأمـارة عـلى الـبـيـبـان بِنسْتَنَه

سـنين طـويلـة وكـاس الصـبـر ويّانـا

يا مـيت ندامـة عـلى اللى راح ولا جـالْنَه

فى وسط الهيام انبعث صرخات تشق الليل، وتجلت أضواء غمرت المكان، وانبعث أدخنة وعيارات نارية، وذهل الناس لما فوجئوا به، وتسمروا لحظات فى أماكنهم، ثم أخذوا يجرون هنا وهناك، تختلط تساؤلاتهم بالرعب والإشفاق، ماذا جرى في كفر

أبو سالم فى هذه الأوقات السعيدة التى لم تتح لهم منذ سنين، ولم يبق التساؤل معلقًا لفترة طويلة، فقد انطلقت صفارات الخفراء، وتشتت الناس وأقبل «قمر» على «أسمهان» يحيطها بذراعيه ليحميها من الخوف الذى كاد يشلها، وسرت الأخبار الجديدة المزعجة مسرى النار فى الهشيم، لقد أشعل مجهول النار فى منزل عبد المتجلى، فأتت على كل ما فيه من أثاث، ومن حسن الحظ أن أم صابرين وولديها وابنتها كانت تشهد الحفل الكبير فى بيت يطل على المشهد، وهو بعيد عن بيتها الذى احترق، وصاح أحد الرجال:

- «لقد احترقت البهائم والدجاج وعشة البط والأوز والحمام..».

لكن عبد المتجلى خاض النار، واندفع إلى الداخل دون وعى منه، ولم تفلح كل الجهود لمنعه من اقتحام الخطر كان يريد أن يطمئن على أمه «رمانة» التى تركوها وحيدة فى الداخل.

«أمى.. أمى.. قتلوا أمى..».

سمعها تقول بصوت واهن، فى ركن قصى بحظيرة البهائم، وهى تبكى وتندب وتسعل من تراكم الدخان، وتقول:

- «عوضى عليك يا رب..».

حملها بين ذراعيه، وخاض الجمرات دون تحوط، لم تُصَب إلا بحروق بسيطة فى يديها وقدميها..

انقلب الفرح إلى ما يشبه المأتم، وبدت على الوجوه الكآبة والأسف، وقاست أم صابرين المكان بعينى نمرة غاضبة حانقة، وتمتمت:

- «لسوف يدفعون الثمن غاليًا.. إننى أعرف من فعل ذلك..».

أما عبد المتجلى فقد كان يروح ويجىء، ويحمل الماء ويقذف به على النار، دون أن ينطق بكلمة، وكان الناس يساعدونه فى ذلك، فهناك فئة تصب الماء، وأخرى تضرب اللهب بالعصى وترمى عليه بالتراب، لكن بناء بيت عبد المتجلى قد انهار بكامله.

عندما سكنت النار، وهدأت الريح، وانفض السامر، تطلع عبد المتجلى إلى زوجه فى حقد:

- «أنت سبب المصائب.. أنا عشت ثلاثين عامًا ويزيد دون أن يفكر أحد فى الانتقام منى..».

لم تستمع ام صابرين جيدًا لما يقول، كان كل تفكيرها منصبًا على من فعل ذلك، وكانت حاسة الشم لديها قوية، وعندما قال عبد المتجلى:

- «لعلها فتنة نجمت عن الغيرة بعد أن رزقنا الله بالتوأم، وأفاض علينا من نعمائه..».

قالت وهى تسدد أبصارها إلى الأفق الأسود الموشح ببقايا الدخان:

- الناس يرزقــون بالأولاد والمال كل يوم ولا يفكر أحــد فى إحراقهم . . » .

- «لعلها مصادفة يا أم صابرين» .

لم تكترث لما يقول ، وتمتمت :

- «أنا أعرف ، وسيكون ردى عليهم لا مثيل له . . » .

أما حضرة العمدة إبراهيم صوان فقد قدم على عجل - وكان قد أوى إلى فراشه بعد حضور جانب من الحفل - لابسًا جلباب النوم ، والطاقية بدلاً من العمامة ، وقال وكأنه يعرف كل شىء :

- «سوف أضرب بيد من حديد . . إنها إساءة موجهة إلىّ شخصيًا ، وإلى سلطة الحكومة وهيبتها ، ومن ثم فلا تهاون مطلقًا . . » .

علق شهبندر التجار كما لو كان يحلو لشيخ المسجد أن يسميه ¨ائلاً :

- «الذى يلعب بالنار لا بد أن تحرق أصابعه» .

رد عبد المتجلى :

- «صدقت ، لكن ماذا تقصد؟؟» .

قاسه بنظراته ، وتنهد ثم قال :

- «لا تغضب يا عبد المتجلى ، فأنت تدفع ثمن الأرباح التى حققتها زوجك فى التجارة . . » .

رد عبد المتجلى فى توتر :

- «ربما كنت رافضًا فى البداية لمسلك زوجتى، لكننى اليوم أشد إيمانًا واستمساكًا بما تفعل، إن كل إنسان حر فى أن يشترى أو يبيع . . وثعابين الحقد والمكر يريدون أن يستولوا على كل شىء . . إننى أرفض الظلم والإهانة . . » .

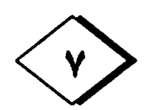
أما شيخ المسجد فقد هز رأسه قائلاً :

- «اصبر يا عبد المتجلى، واعلم أنه ابتلاء أو اختبار من الله . . وإنها لفتنة، والعاقل من أدرك ذلك وعمل لما بعد الموت . . » .

للقرية حاسة خاصة تتميز بها، وتكاد هذه الحاسة لا تخطئ فى تفسيرها للأحداث، وتحليلها للأمور، وتكون محصلة ذلك كله رأى محدد واضح يلقى الضوء على الحدث، ويبين معالمه، إنها فطرة أو تشبه الفطرة فى هؤلاء الناس .

لكن العمدة كانت له مصادره الخاصة، وملفاته السرية تحوى الكثير من الأسماء والنشاطات والاتجاهات، ومن عجيب الأمور أن تحريات العمدة حول الحادث اتفقت تمامًا مع انطباعات الناس ورأيهم المحدد، ولم تكن أم صابرين بأقل ذكاءً وإدراكًا للموقف وبواعثه من حضرة العمدة الخبير المتمرس .

●●●



كان عبد المتجلى حزينًا أشد الحزن، بعد أن هدأت العاصفة، واستقرت الأمور، وكان مصدر حزنه أن هذا الحريق المباغت كان يمكن أن يقضي عليه وعلى أسرته كلها لو كان بداخل البيت وقتذاك لولا لطف الله، وراوده هاجس، وهو أن حياته الأولى الهادئة الفقيرة المتواضعة كانت أفضل كثيرًا مما يعانيه اليوم، بل إن وقوعه بين براثن رجال الأمن السياسى وهو يبحث عن الونش، كانت أخف وطأة مما هو عليه الآن، القناعة والبساطة حققت له الأمن والسلام، وعندما انتعش اقتصاديًا واجتماعيًا بدأت تتوافد عليه الأحداث القاتلة والهموم والمخاوف.. فهل يتراجع إلى مواقعه الأولى؟؟ هل يفر إلى القاهرة؟؟ أو يمضى فى طريقة جسوراً يحطم العقبات، ويحقق الآمال ويكشر عن أنيابه حتى يتصدى للذئاب الضارية التى تريد أن تفرض عليه الخنوع والفقر والتراجع، إنها قضية مصيرية، ولا بد أن يتخذ فيها القرار المناسب.

لكن من الذى فعل تلك الجريمة الشنعاء؟ هذا هو السؤال وهو على ما يبدو سؤال تصعب الإجابة عليه فى هذه الظروف المرتبكة الغامضة، إن تتبع خيوط الحادث اتخذ مسارات متشعبة، فأصبح الاتهام بداهة تشير إلى المنافسين من التجار وأصحاب المصالح، ومن ناحية أخرى فإنه لا يمكن تجاهل عوامل الأحقاد الشخصية لدى البعض الذين ساءهم بالطبع أن تنتعش أحوال عبد المتجلى الاقتصادية، ويصعد هذا الصعود المبهر فى السلك الاجتماعى، وما يتبعه من تطويع السلطة، ورسوخ المكانة، وامتداد السيطرة، وهذه الفئة الحاقدة يصعب أيضًا تحديدها، اللهم إلا من خلال الوسائل التى استخدمت أو الأشخاص الذين كلفوا بمهمة الحريق، ثم هل يمكن تجاهل دور العمدة ورجاله؟؟ إن العمدة متعاون تمامًا مع أم صابرين، لكنه قد يكون فى حاجة إلى المزيد من المكافآت الدورية؛ لأن أم صابرين تحظى بالجزء الأكبر من الربح، فضلاً عن أنها تستفيد من عدة جهات غير العمدة، ومن يدرى فقد يكون مأمور المركز نفسه قد شعر بغيظ شديد وهو لا يحصل إلا على الفتات. . هذا ما كان يفكر فيه عبد المتجلى، أما أم صابرين فقد اتخذت خطوتين عمليتين الأولى هى الإسراع فى بناء بيت جديد على طراز حديث نوعًا ما، لتتحدى به مشاعر المعتدين، ولتزوده بإمكانات الأمن والسلامة، وكان عليها فى الوقت نفسه. . وهذه هى الخطوة الثانية أن تواصل مسيرتها الظافرة فى أعمالها التجارية

دون خـوف أو تردد، أمـا الشىء الذى لم تكشف عنه لأحـد حتى زوجها فقد بذلت مبلغًا كبيرًا من المال بحثًا عن الجناة، كانت تؤمن بفطرتهـا أن الشك فى الجـميع هو البـداية الصـحيـحة، ولا مـجال للعـواطف فى هذه المعـركة الشـرسـة، إنهـا مـهـمـا دفعت من مـال فسـوف يأتى بعـائد كبيـر غير منظور فى البـداية، لكنه فى النهـاية سيؤمن لها المستقبل بصورة أكبر على الأرجح، ولم تكن فى عجلة من أمرها، حتى لا تتخبط أو تضل الطريق إلى الحقيقة. . منصور ومندور أغلى كنوز الدنيـا لديها، فلتـحطهـما بسـياج من الحرص والحب والأمن. قـالت: «فى هذا الزمـان يا عـبد المتجلى يا حبيبى كل شىء أصبح يشترى بالمال للأسف، وأنا لا أستطيع أن أتعامل بعـملة غيـر عـملة العـصر. . الجنية المصـرى ينخـفض، والدولار يرتـفع، لكنك تسـتطيع أن تشـتـرى النفـوس بأى منهـمـا. . وأنا والحـمـد لله أصـبح لدى رصيـد من العـملة المحلية والأجنبيـة. . لا يجب أن تتصـور أن أمامنا عقبة برغم الحريق المدمر الذى أصاب مقرنا. . والبادى أظلم. . والحديد بالحديد. . ».

قال لهـا فى امتعاض وهو ينحى جانبًا صحيفة الصباح التى كان يقرأ فيها:

- «ذلك طريق الندامة. . ».

- «بل السلامة».

- «هذه المرة فقدنا بيتًا وأثاثًا وبهائم، أما المرة القادمة فقد يفقد أحدنا حياته، وتلك خسارة فادحة لن يعوضها شيء . . ».

قالت في ثقة:

- «أعداؤنا يعيشون في رعب . ».

- «كيف؟؟».

لم تجب على سؤاله، واستطردت في حديثها:

- «ثم إنهم أغبياء وضعفاء».

- «لا أفهم ما تقصدينه».

- «إن الخصم القوى يا عبد المتجلى لا يلجأ لمثل هذه التصرفات الحمقاء، لو كانوا أذكياء لتصدوا لنا بطريقة أخرى».

- «كيف؟؟».

- «إن مناورات السوق فيها الكفاية . . لو وجهوا إلينا ضربة تجارية في السوق لتركونا مفلسين، وبذلك ينتصرون ويحطمون قوتنا . . إن حرق منزل سذاجة وخيبة . . وهذا الحريق الأسود يحمل بصمات الإدانة . . وسترى . . ».

ذهل عبد المتجلى من أفكارها العميقة، أين تعلمت هذا الدهاء كله؟؟ رأسه الملتهب هذا يفيض بأشياء غابت عنه، إنها تعرف طريقها

جيدًا، وتتصرف بوعي وإيمان وثقة، لقد أصبحت ذئبة بين الذئاب، لكنها تتميز بصفات مذهلة لا يمكن نسبتها إلى ذكائها الفطرى وحده، يبدو أن الكتب التى دفنت رأسى فيها طويلاً لا تحتوى على كل شىء، يا ضيعة العمر فى كتب الانتساب والصنائع والفلسفة.

قال لها:

- «إنك تعتمدين على عقلك أكثر من اعتمادك على الله..».

- «أنا لا أخطو خطوة واحدة إلا وأنا أضرع إليه بكل عقلى وروحى».

- «وكيف يجتمع المكر والإيمان يا أم صابرين».

- «الحرب خدعة.. ألم تقل لى أن التفكير فريضة..».

العمدة الحاج إبراهيم صوان وقع فى حرج بالغ، إنه مسؤول الأمن الأول فى البلد، والحادث قد أظهر ضعفه وفقدانه للسيطرة الأمنية التى يتشدق بها هنا وهناك، فضلاً عن أن ما جرى قد يؤثر على دخله المادى، وخاصة أن أم صابرين لها علاقات عديدة متنوعة، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات، لهذا كان يعانى من كرب شديد، ومن ثم فقد استدعى الخفراء وشيخهم فتراصوا أمامه فى صف واحد يحملون بنادقهم الأثرية، صرخ فيهم محتقن الوجه:

- «أين كنتم يا بهائم».

ناب عنهم شيخ الخفراء فى الرد قائلاً :

- «كنا نحرس حفل السبوع» .

- «أيعقل أيها الثور أن تترك أبواب البلد مفتوحة أمام المجرمين، وتحشد الخفراء كلهم لسماع أسمهان وقمر؟؟» .

- «لقد كانت هناك نقاط حراسة يا حضرة العمدة» .

نظر إليه العمدة فى غضب وقال فى ضجر :

- «عتيق . . أنت تعلم . . وأنا أعلم» .

ارتبك عتيق وقال :

- «الخفير الأشمونى كان عند مدخل البلد البحرى، وسليمان فى القبلى وأبو شادى فى الشرق، والخيال فى الغرب وعبد الله عند سراية سعادتك . . و . . . » .

صرخ العمدة :

- «اخرس يا ثور . . كلام على الورق . . إن حدود البلد طويلة . . والثغرات فيها كثيرة . . وخفراؤك ينامون على المصاطب . . بل وفى بيوتهم . . هذا الشارب المفتول تحت أنفك مستعار كباروكة النساء» .

قال عتيق وشاربه يرتجف :

- «هذا كلام قاس وصعب يا حضرة العمدة» .

- «وماذا تظن؟ هل أطلب لك علاوة أو مكافأة؟» .

- «كل البلاد تحدث فيها جرائم . . حتى رئيس الوزارة قتلوه وسط حراسة . . كله قضاء وقدر ، وعند القضا يعمى البصر . . » .

- «عمى فى عينيك كلب بن كلب . . امش من قدامى لا فتح نفوخك» . . الحقيقة أن العمدة كان فى حيرة من أمره ، ماذا يقول لأم صابرين ، وبأى وجه يقابلها؟ وكيف يمد يده ليأخذ «المعلوم» ، قد يجد الحجج ويفلت من لوم مأمور المركز ، مثلمًا يفعل دائمًا ، لكن الموقف بين يدى أم صابرين شديد الصعوبة .

ومرت أيام عبد المتجلى يعانى من وطأة الحادث ، لقد كثرت أمواله ، كما كثر أعداؤه ، وأصبح أكثر من أى وقت مضى شديد الحساسية لكل ما يجرى من أحداث ، ينظر إلى المستقبل فى رعب ، أصبح هناك أشياء كثيرة يحبها ويخاف عليها ، وحينما استبد به الضيق قصد المسجد ليصلى ويقرأ القرآن ويذكر الله ويدعوه من أعماق قلبه ، بالأمس كان همه نفسه وأفكاره الحالمة التى دفعته للبحث عن «الونش المسروق» ، واليوم لديه منصور ومندور ، ولديه أم صابرين التى لا تزيدها الأحداث إلا قوة وصمودًا وإصرارًا على المضى قدمًا ، ولديه الانتعاش المادى والقوة ، وينال الاحترام من رئيس مجلس القرية وأعضائه ، حتى الأطفال يحبونه ويحترمونه على الرغم من أنه لم يعد يحكى لهم الكثير من القصص ، أما طلبة المدارس والجامعات فقد

أصبح لهم شأن آخر، إنهم يتهامسون متهمين عبد المتجلى بالتخلى عن مبادئه الأصيلة، وانسياقه وراء الكسب المادى، وسماه بعضهم «عبد المتجلى الرأسمالى» أو «عبد المتجلى الانفتاحى».. والمستغل.. والإقطاعى.. إلى آخر تلك المسميات والشعارات التى تؤلمه وتؤرقه، هذه الصورة التى تجسدت فى أذهان الشباب هى التى تؤلمه وتحز فى نفسه، ولا ينكر بينه وبين نفسه أنه يتمنى أن يعود إلى عهد «عبد المتجلى القديم» لكن يشعر بالعجز القاتل إزاء تحقيق هذه الأمنية، لقد أصبح- نفسيًا وعقليًا وعمليًا- غير قادر على أن يخطو إلى الماضى.. إلى الوراء اللهم إلا فى أحلام اليقظة التى يسعد بها هنيهات قليلة.

قال الشيخ المسجد:

- «كلما مرت الأيام ازددت كراهية للحياة يا مولانا».

- «بل أنت تحبها برغم متاعبها..».

- «لا أظن ذلك، لأن بين جنبى من المرارة ما أعجز عن وضعه».

- «لكنك لست انتحاريًا ولا هروبيًا».

- «الانتحار لا.. لكنى أحلم بالهرب..».

- «إلى أين يا حبيبى..».

- «إلى عالم آخر يا مولانا لا أعرف فيه أحدًا، ولا يعرفنى فيه أحد».

- «وكـيـف تهـرف من نفـسك التى بين جنبـيك؟؟ ذلك هو الهروب المستحيل».

هز رأسه وتمتم:

- «الهروب المستحيل . . الهروب المستحيل».

ثم رفع رأسه فجأة وقال:

- «مولانا؟».

- «نعم».

- «هل الإنسان مخيرٌ أم مسيرٌ؟».

- «السؤال القديم والجديد».

- «لم تجبنى».

قال الشيخ:

- «مسير ومخير . . وهذا معنى الحديث الشريف «الإنسان بين الجبر والاختيار» . . ثم حوقل الشيخ وبسمل وأخذ يقرأ:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

هل فهمت يا عبد المتجلى؟؟.

قال عبد المتجلى ودمعة تبلل أهدابه:

- «فهمت ولم أفهم. . ».

- «بل فهمت. . لكنك لم تستقر. . ».

-« وهل أنت مستقر يا مولانا؟».

- «لا يشغلنى ما يشغلك».

- «ربما، لكن لديك ما يحيرك».

- «بالتأكيد، لكنى أستجيب للحيرة بطريقة غير طريقتك؛ لأنها من نوع آخر غير الذى تكابده. . ».

ودخل التاجر الصديق كالعهد به ضاحكًا ساخراً وقال:

- «إن بيتك لم يحترق وحده، بل احترق معه شارب شيخ الخفراء عتيق. . ».

وابتسم الشيخ وعبد المتجلى، واستطرد الحاج فى صوت هامس:

- «والعمدة هو الآخر أصبح ورقة محروقة. . ».

وتنهد الحاج التاجر وهو يجلس وقال:

- «عندما تصبح مليونيراً يا عبد المتجلى فسوف تحتاج إلى كتيبة مدرعة لحمايتك من القوى المضادة. . ».

●●●

ألم تكمل أم صابرين أربعين يومًا فى فراشها بعد الولادة، لكنها خرجت على المألوف، وأخذت تزاول نشاطها فى وقت مبكر، وأصبح لها مكتب فى عاصمة الأقليم «طنطا»، ومكاتب فرعية فى عدد من المدن الصغيرة من بينها مكتب المركز الذى تنتسب إليه، ورست عليها بعض المناقصات أو العطاءات، كما أصبح لها محاسب قانونى يضبط حركة الصادر والوارد، ومهندس مدنى يراقب بعض المقاولات الخاصة بها.

ولم تقبض أم صابرين يدها عن الذين تعودوا على هباتها وعطاياها، بل أغدقت عليهم، كانت واثقة أن مزيداً من العطاء يعود عليها بالمزيد من الكسب والثقة والولاء، والعبرة ليس بمقدار ما تدفعه ولكن بحجم النتائج والعائد الذى تتسلمه.

قال لها عبد المتجلى:

- «أنت جبارة».

قالت ضاحكة:

- «تتوهم أشياء غريبة.. إن ما يهمنى هو أن أعمل.. وأثناء العمل تحدث أمور تحتاج إلى حل.. عندئذ أتصرف بما يقتضيه الوضع.. أنا لا أخطط بالتفصيل لكل شىء يا عبد المتجلى..».

قال مكملاً حديثها بطريقته الخاصة:

- «ولكنك تستجيبين للمواقف حسبما تتطلبه الظروف».

- «ماذا أفعل غير ذلك؟؟».

- «فعلاً. . إنه طريق لا عودة منه. .».

ضحكت وهى تلقم ثديها لمنصور:

- «أستطيع أن أعود. . أو أتوقف. . أنا حرة. .».

- «لا قيود؟».

- «نعم لا قيود. .».

- «والمبادئ ليست قيوداً. . ولكنها نعمة. .».

- «عن أية مبادئ تتحدثين؟؟».

- «أصول العمل. .».

تمتم: «ميكافيللى».

لم تفهم الكلمة، ودفعته فى كتفه قائلة:

- «تعرف أننى لا أقرأ أو أكتب الإنجليزية. .».

- «ولا العربية يا أم منصور. .».

- «يكفى أنك تعرف ذلك يا أبا مندور. .».

قالت ووجهها ينطلق بالبشر والفرح:

- «وفى «الفيلا» الجديدة حرصت على أن يكون لك غرفة مكتب وبها مكتبة عامرة بكل الكتب التى تحبها . . العلم نور . . » .

قال شاردًا :

- «ومتى ينتهى البناء؟» .

- «بعد ثلاثة أشهر . . » .

- «وكم ستتكلف؟» .

- «لاتسأل» .

- «أريد أن أعرف» .

- «خمسين ألفًا» .

- «قرشًا» .

- «لا . . جنيهًا . . » .

انتفض فى ذعر «خمسين ألف جنيه» شىء كالجنون ، من أين لها بهذا المبلغ؟ وما هى جملة ثروتها؟ «إن هذا الرقم وحده يعنى أننا- بكل تأكيد- قد وقعنا فى الحرام» .

وأخذ يصرخ :

- «حرام . . حرام . . » .

- «حلال.. حلال».

- «حرام.. حرام».

- «أثبت».

- «الأمر لا يحتاج إلى إثبات».

- «بعض الظن إلى إثم..».

- «نحن نخوض فى مستنقع الإثم.. وسأترك البلد كلها وأرحل..».. كانت تعلم أنه عاطفى القلب، وكانت واثقة من قدرتها على إقناعه والتأثير عليه، ولم تفعل شيئًا سوى أن رفعت ولده الأول منصور عن حجرها، وقدمته إليه قائلة:

- «خذ قَبِّل ابنك.. انظر إلى وجهه جيدًا.. إنه عبد المتجلى الصغير.. الخالق الناطق أنت.. وهل كان فى إمكانى أن «أتوحم» على أحد غيرك؟!».

تناول الطفل من يديها، وأخذ يتأمل ملامحه الدقيقة وعينيه، وأنفه الصغير، ومسحة البراءة على وجهه، ووجد لديه رغبة عارمة فى أن يقبله بحرارة، ففعل، وأخذت أم صابرين تضحك وتقول:

- «حاسب.. ستأكل الولد..».

●●●



سقط عبد المتجلى فى الانتخابات، صدمته النتيجة بعنف، بطل الأمس الباحث عن الونش، والمتبنى لقضايا التعساء والمستضعفين والذى استُقبِل بالأمس - بعد عودته من المعتقل - استقبال الغزاة الفاتحين كيف يسقط فى الانتخابات؟ هل تخلت عنه الجماهير التى أحبته، ودافعت عن حقه فى الحرية والتعبير؟ وذهلت أم صابرين إزاء هذه النتيجة غير المتوقعة، وحاولت تفسير ذلك، وكان السبب الوحيد الذى اعتقدت أنه وراء سقوطه هو أنها لم تعط الإدارة «المبلغ» المناسب، ولا شك أن هناك من دفعوا أكثر منها، أما عبد المتجلى فقد انحصر تفكيره فى نقطتين أساسيتين الأولى هى أن القوى الخفية التى اعتقلته بالأمس أسقطته اليوم إذ لا يصح أن ينجح معارض قديم مهما غير من جلده وثيابه وشعاراته، والنقطة الثانية أن الذين أحرقوا البيت هم أنفسهم الذين أسقطوه بأسلوب أو بآخر، لم يفكر عبد المتجلى فى أن شعب القرية هو الذى أسقطه،

فهو يتصور أنه لم يتغير أو يتبدل من مبادئه القديمة، وأن موضوع التجارة أمر مباح لا ينتقد أو يعاتب عليه، فهى حق مشروع لجميع الناس، وإن راودته بعض الشكوك حول أسلوب زوجه الانتهازى الذى يفتقر أحيانًا إلى الرحمة.

قالت أم صابرين:

- «سوف نطعن فى الانتخابات، إنها مزورة مائة فى المائة».

ابتسم عبد المتجلى فى حزن وقال:

- «الانتخابات طول عمرها مزورة».

- «أعرف، لكنك لا بد أن تنجح فى أى حال من الأحوال».

ودق الباب، ودخل شيخ الجامع، لقد أقلقه اعتصام عبد المتجلى بيته بعد الحريق، وبعد الفشل فى الانتخابات جلس الشيخ يرفّه عنه، ويخفف من الآثار النفسية المؤلمة التى ألمت به، كان عبد المتجلى موقنًا أنها أزمة وتمر، لكنه حرص أشد الحرص على أن يفهم ما يجرى حوله، ويصل إلى أبعاد الموقف، والعناصر المؤثرة فى مجريات الأحداث، قال عبد المتجلى لشيخ المسجد:

-«لا تجاملنى.. أخلص لى القول، فأنت رجل الله المؤمن، وشهادتك لا شبه فيها..».

هز الشيخ رأسه وقال:

- «الحق مر».

- «وأمر منه أن نجهل ما هو حق وما هو باطل».

- «أنت الذى قلت يا عبد المتجلى . .».

تنهد الشيخ وقال :

- «صديقك من صَدَقك لا من صدَّقك».

- «نعم . .».

-«وزوجتك أقامت إمبراطورية للشر . .».

كاد عبد المتجلى يصعق، واستطرد الشيخ :

- «إن السوق طريق إلى جهنم . . والاحتكار ملعون فى الكتاب والسنة . . والعمل على رفع الأسعار إجحاف بحق الفقراء . . وشعبنا مسكين».

ثم أمسك الشيخ بكتف عبد المتجلى وقال :

- «لقد أسقطك الشعب يا عبد المتجلى».

-«لا أصدق».

- «أنها الحقيقة . .».

- «وما شأنى بما تفعله زوجى؟».

- «الرجال قوّامون على النساء يا عبد المتجلى . . » .

وانفتح باب الغرفة بعنف ، وأطلت منه أم صابرين ووجهها مكفهر ، وقالت وهى تحاول كتم غضبها :

- «أتحرضه ضدى يا مولانا» .

خجل الشيخ ولم ينطق ، واستطردت أم صابرين :

- «هل هذه الوقيعة ترضى الله ورسوله؟» .

احمر وجه الشيخ وارتجفت أساريره وقال :

- «لم أرد ذلك ، ولكنى قصدت النصيحة لوجه الله . . سأقول ما أعتقد أنه حق ، ثم أمضى فى طريقى . . » .

وهب عبد المتجلى واقفًا وصرخ :

- «اخرجى وأغلقى الباب أيتها الملعونة . . » .

نظرت أم صابرين إلى الشيخ وقد تساقطت دموعها وقالت بصوت باكر :

- «أرأيت؟؟ ملعونة! ! تلك هى النتيجة العظيمة لنصائحك . . » .

وانطلق عبد المتجلى نحو زوجه محاولاً ضربها ، لكن الشيخ أمسك بذراعه فى شدة حجزته من الانطلاق والوصول إليها ،

وسارعت أم صابرين بالابتعاد، لكن نشيجها كان يصل واضحًا إلى آذانهما، استعاذ الشيخ بالله من الشيطان الرجيم وحوقل، ثم أصر على اصطحاب عبد المتجلى إلى المسجد «بين يدى الله وفى غمرة السكون ونسائم الإيمان تسكن النفس، ويعود إليها اطمئنانها وآمالها المفقودة، وتذهب الوساس والأحزان. . وينفتح طريق التوبة»، والناس عند الله يا عبد المتجلى لا يقاسون بالأموال والسلطان، ولكن بالتقوى والإيمان.

إن رصيد أهل الدنيا فى البنوك. . ورصيد أهل الآخرة عند الله. . فاختبر ودائعك، وفكر فى المكان الذى ستضعها فيه. تعرف أنك حبيب إلى قلبى؛ لأن معدنك طيب، وقلبك طاهر، لكن للعقل- كما للنفس- وساوس. . لقد خيل إليك أن التجارة حرة. . نعم هى حرة، بشرط ألا يقع الظلم على المستهلكين. . وأهل «كفر أبو سالم» غالبيتهم العظمى من الفقراء. . وكذلك القرى المجاورة. . ولو كانت زوجك تعتقد أن ما تفعله حرام لما فعلته. . إنها مؤمنة إيمانًا كاملاً بحريتها فى العمل، ويزيد من إيمانها بذلك أن الجميع يفعلون ذلك فى سوق التجارة. . حتى الحكومة نفسها تفعل ذلك برغم الطنطنة حول الدعم للسلع مراعاة لصالح الفقراء. . الدعم الذى يسرقه القادرون، ولا يصل منه إلا أقل القليل.

فى البيت جلست أم صابرين تعوى كذئبة جريحة، كانت تشد شعرها، وتضرب الأرض بقبضتها، وتضغط على أسنانها، لم تعد تطيق الهزيمة، لا بد أن تعرف من أحرق البيت، ومن أسقط عبد المتجلى، وإن استسلامها يعنى الإفلاس والضعف والتراجع، وهى مصرة على أن تمضى قدمًا إلى الأمام، وأن تكون أقوى وأعنف وأكثر ثراء، إنها- وهى المرأة- قادرة على قهر أعدائها، وبعث الاقتناع والثقة فى قلب زوجها، إن المزيد من المعارك لا بد وأن يصاحبه المزيد من العمل والتجارة والربح، ولن تستطيع قوة فى الوجود أن تنال من عزيمتها. . تلك هى دنيا اليوم، ومن يخرج عن قوانينها- حتى ولو كانت قاسية- لداسته الأقدام، ولا شك أن ظهورها بمظهر القوية الرابطة الجأش سوف ينعكس عليها بالفائدة.

وكان أول شيء فكرت فيه هو إقامة «حفل زواج» لائق لبدرية شقيقة عبد المتجلى وزوجها أشرق، وفى اليوم الموعود نحرت الذبائح، ودقت الطبول، وترنمت المزامير، وهزجت الصبايا والأطفال بأغانى الأفراح الجميلة، ولم تتح الفرصة لحضور الراقصات؛ لأن عبد المتجلى اعترض عليها بشدة، وأكل الأحباب طعامًا شهيًا، كما أكل اليتامى والفقراء والدراويش، وحضر المشاهد السعيدة حضرة العمدة ورئيس مجلس القرية وأعضاء الوحدة المحلية، وضابط صديق من المركز وبعض

المخبرين، وعدد من التجار وعدد آخر من رجالات ونساء القرى والكفور المجاورة.

كان الفرح بمثابة فرصة لالتقاط الأنفاس، ولم يكن عبد المتجلى فى حالة تسمح له بالمناقشة أو الاعتراض اللهم فى أشياء بسيطة، لكنه كان يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى وقفة حاسمة فى حياته، فالأحداث كلها صغيرها وكبيرها تثبت أنه لم يسقط فى الانتخابات سقوطًا عاديًا كالآخرين، ولكن هناك أشياء كثيرة سقطت معه منه تاريخه والمبادئ التى ضحى فى سبيلها فهل لو سرق اليوم ألف ونش وونش سيجعله ذلك يتحرك ويثور ويقتحم الصعاب كما فعل بالأمس؟ ثم إنه يشعر فى داخله بتأنيب قاس للضمير مهما قال ومهما قالوا ومهما حاولت أم صابرين أن تلفسف منهجها فى الحياة، إن أم صابرين- كما يعتقد- امرأة بسيطة النشأة، ليست لديها خلفية «عقائدية» ولا صلة لها بأية نشاطات سياسية، إن حياته كلها مركزة فى قضية واحدة «كيف تكسب القرش وتحسن توظيفه لينمو ويزداد»، وهى فى الظاهر لا تختطف لقمة من فم جائع، ولا تجبر مشتريًا على أن يتعامل معها، كما أنها ليست بدعًا بين التجار هنا وهناك، فهى تفعل مثلما يفعلون، كما تعتقد أن شيخ الجامع لا خبرة له بالتجارة، ومهمته الوعظ والكلام المؤثر، وهى- كما تظن- والحمد لله تخرج الزكاة، وتصلى وتصوم، وتتصدق على الفقراء،

وتفتح البيوت بتوظيفها لبعض الناس، ثم إنها مضطرة- وذلك حقيقة- أن «ترش» بعض الأموال على أصحاب السلطة حتى لا يعرفوا مسيرتها، وليس أمامها طريق غير ذلك لتسهيل حركتها التجارية، وذلك الأسلوب أصبح عرفًا شائعًا مقررًا فى الجمهورية كلها، وليس فى المركز أو كفر أبو سالم وحدهما.

أوشك حفل زفاف بدرية على الانتهاء بعد منتصف الليل، وفوجئ الناس بظهور أم صابرين بفستانها القطيفة الأحمر المحتشم وشالها الأصفر وصاحت بأعلى صوتها:

- «كله سمع هس».

توقف الطبل والزمر والغناء، وتوجهت الأبصار جميعها نحوها، حتى الضابط وحضرة العمدة والكبراء الذين حضروا، وصاحت قائلة ووجهها يطفح بالبِشر والسعادة:

- «أتعرفون من الذى أحرق بيتنا؟».

وذهل الناس، وتلاحقت الأنفاس، وهب حضرة العمدة الحاج إبراهيم صوان واقفًا، وسمعها وهى تقول وتشير بإصبعها:

- «هذا الرجل.. عتيق.. شيخ الخفراء..»

جمد الناس فى أمكنتهم، كما جمد عتيق فى مكانه، ومضى حضرة العمدة فى خطوات متسارعة متلاحقة قوية صوب عتيق،

والناس يرقبون المشهد المثير، حاول عتيق أن يفر، لكنه وجد صعوبة كبرى وسط الحشد المحيط به، فلم يجد مناصًا من أن يرفع بندقيته ويصوبها قائلاً:

- «مكانك يا حضرة العمدة وإلا أفرغت فيك الرصاص» . . زام الناس، وهدروا بصوت مكتوم، بينما صاحت أم صابرين مرة أخرى، وهى تلف شالها الأصفر على وسطها عازمة على الرقص:

- «دقّى يا مزيكا . .» .

واختلط الطبل بالزمر والغناء والتصفيق، وأخذت أم صابرين ترقص رقصة النصر، أما العمدة وإلى جواره قدم ضابط المركز، فقد سدد نظرات حادة إلى عتيق، الذى أخذت يداه ترتخيان شيئًا فشيئًا، حتى لا مست البندقية الأرض، ثم قذف بها أمامه وشهق باكيًا، وارتمى على قدمى حضرة العمدة:

- «أنا فى عرضك يا سعادة البيك . . أنا مجرم . . أنا تبت خلاص . .» .

صاح حضرة العمدة:

- «كتفوه بالحبال وجروه كالكلب إلى الدوار . .» .

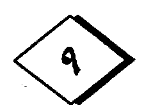
كانت أم صابرين ما زلت ترقص . . وبقى عبد المتجلى فاغرًا فاه . . كأنما قد انخرس لسانه . .

وأفاق على أم صابرين وهى ترقص . . فوثب من مكانه ، وأخذ يهوى على جسدها ورأسها بالخيزرانة ويقول :

- «يا فاسقة . . يا فاجرة . . هل وصل بك العهر إلى هذا الحد؟؟» .

وأخذت أم صابرين تجرى أمامه صوب الباب وهو يتابعها فى إصرار حتى تعثر وسقط على الأرض ، فعادت بجاسرة تأخذ بيده وتنفض عنه الغبار . . «أنا آسفة يا عبد المتجلى . . لقد أخطأت . . لكنى لم أتمالك نفسى . . لقد أنستنى الفرحة كل شىء . . كنت أريد أن أعرف الجانى بأى ثمن . . وقد عرفت . . » .

●●●



وسيق عتيق إلى دوار العمدة كما تساق البهائم، وأدخلوه إلى القاعة الخلفية المخصصة للحبس والتحقيق، كان معه العمدة وضابط المركز واثنان من العسكر، لم يكن عتيق فى حاجة إلى التعذيب كى يعترف؛ لأنه انهار تمامًا عندما أعلنت أم صابرين عن اتهامه على مشهد من الناس، لكن العمدة كان فى ذروة الضيق، فلا يمكن أن يرضيه الاعتراف وحده، إنه يريد أن يتشفى ويثأر لكرامته كحارس لأمن البلد، وكحامٍ لأم صابرين التى لم تبخل عليه بشىء مطلقًا حتى أصبح طوع بنانها.

قال الضابط للعسكرى الواقف إلى يمينه:

- «انتفوا شارب شيخ الخفراء».

هز العمدة رأسه موافقًا، بينما استنجد عتيق قائلاً:

- «فى عرضك يا بك.. سأقول كل شىء..».

- «هذا مفهوم، لكن التأديب يأتى أولاً..».

وابتدأ العسكرى فى تنفيذ مهمته الصعبة وهو يقول :

- «صعب جداً يا بك . . لكأنما ثبتت الشعرات بالأسمنت المسلح» .

- استعينوا «بالكماشة» التى تخلعون بها المسامير .

وربما نحتاج إلى «الكماشة» أيضًا فى نزع أظافره . .

انفرط عتيق باكيًا ، وسالت الدموع على وجنتيه ، وأخذ يضرع :

- «فى عرضك يا بك . . ستطلع روحى» .

بصق العمدة فى وجهه وهو مشدود الوثائق جيداً وقال :

- «أنت كالقطط بسبعة أرواح» .

- «الشيطان شاطر يا بك . . خدعنى الملاعين بألف جنيه . . » .

«ألف جنيه يا بك . . وهو مبلغ لم تمسك به يداى طوال حياتى» .

قهقه العمدة فى سخرية :

- «الشيطان أنت . . والشحاذون يلعبون بالآلاف اليوم . . أنت نفسك اشتريت فدانًا العام الماضى بعشرة آلاف جنيه . . » .

- «أموال امرأتى يا بك» .

- «لكن الفدان سجل باسمك» .

كانت الدماء تنسكب على فمه، وجسده يرتجف، ووجهه شاحب، ربما رأى الآخرين قبل ذلك فى نفس موقفه الآن، وقد شارك فى تعذيبهم بالطريقة نفسها، لكنه لم يكن يتصور أنهم يعانون من هذه الآلام الرهيبة، والقهر النفسى والإذلال والعجز المهين، وهتف وهو يدخل فى نوبة أخرى من البكاء والتوسل:

- «هذه عقوبة من الله».

قال الضابط فى سخرية:

- «بل عقوبة منا نحن، أما عقوبة الله فأمامك وقت طويل.. وقد يغفر لك.. أما نحن فلا نغفر لخاطئ..».

- «الرحمة يا بك».

تدخل العمدة قائلاً:

- «لا رحمة بمن لا يعرف الرحمة».

- «هذا حرام.. حرام..».

- «حرمت عيشتك، منذ متى وأنت تعرف الحرام من الحلال، أنت تأكلها والعة.. تقاسم اللصوص، وتسرق المحاصيل، وتأخذ الرشوة، وتنتهك حرمات النساء..».

ألقوه على ظهره، ووضعوا رجليه فى الفلقة، وإمعانًا فى الإذلال، أحضروا أحد الخفراء لكى يضربه على قدميه بالسوط، وهو يتلوى

ويستغيث ولا مغيث . . ولم تعد لديه أدنى ذرة من المقاومة ، بل أصبح صراخه واهنًا ضعيفًا حتى أوشك أن يغمى عليه .

قال العمدة :

- «يكفى هذا الآن ، ودعوه يعترف ولتكتبوا كل كلمة يقولها كى يوقع على المحضر . . » .

أدرك عتيق أنها النهاية ، لسوف يساق إلى المحاكمة ، ويفصل من عمله ، ويصدر ضده حكم بالسجن ، وستمرغ كرامته فى التراب ، وتتلوث سمعته وسمعة أسرته ، وسيمشى أولاده فى القرية منكسى الرؤوس ، وسيبيع كافة أملاكه - وما أقلها- لكى ينفق على هذه القضية المشؤومة ، وسيعود إلى الصفر الذى بدأ منه حياته ، وبالأمس كانت كلمته أمرًا ، ورأيه حكمًا ، والناس فى القرية يعملون له ألف حساب وحساب ، وغدًا . . بل اليوم . . سيكون إنسانًا تافهًا محتقرًا لا سلطة له ولا احترام ، ما قيمة الحياة بعد ذلك؟ إن الموت أشرف من هذا الوضع .

قال عتيق فى ضراعة مرة :

- «اقتلونى يا بك . . اشنقونى . . أنا أستحق الموت إن لم يكن من أجل الجريمة التى ارتكبتها فليكن من أجل خيانتى لزوجى وأولادى . . » .

قال العمدة وهو يكز على أسنانه فى غيظ :

- «إن موتة واحدة لا تكفى . . » .

- «ارحمونى بالقتل . . » .

- «لسنا من أنصار القتل السريع الحاسم . . عندما يخونك ساعدك الأيمن، وأمين سرك وموضع ثقتك، فإنها لكارثة ما بعدها كارثة . . » .

رفع عتيق رأسه وهو ملقى على الأرض :

- «اذكر لى يومًا واحدًا فى خدمتك يا حضرة العمدة» .

- «كنت تؤدى واجبك، وتأخذ مستحقاتك . . » .

- لقد قمت بأكثر من الواجب . . » .

- «كذبت . . » .

- «كنت أنت حياتى، وأوامرك مرشدى ودليلى . . خضعت لك كما لم أخضع لله . . » .

صرخ العمدة فى غضب :

- «اخرس أيها الكافر» .

- لا أكذب عليك، ولا على نفسى يا حضرة العمدة . . دعنى وربى فهو أدرى بحالى، وأرحم بى، وأنا لم أيأس بعد من رحمته . . القضية هى . . » .

وأخذ عتيق يروى كيف وقع فى فخ المؤامرة، جاءه الوردانى ربيع من «كفر الصقور»، أغواه كما أغوى إبليس أبانا آدم وأمنا حواء.. «نحن بشر يا حضرة العمدة».. كانت معه رزمة الألف جنيه، أفهمنى أن العملية بسيطة لا تحتاج إلا إلى عودة ثقاب، وأن حرق البيت لا يقصد به الإضرار بأحد.. إنه مجرد إنذار. لم يكن عتيق يعلم أن العجوز أم عبد المتجلى نائمة فى البيت، وقد نجاها الله.. قال له الوردانى ربيع إن الفلاحين سوف يسارعون إلى إطفاء الحريق كعادتهم، ولن تلحق بالمبنى أو البهائم أية أضرار.. بل وطلب منه أن يهب هو وخفراؤه لإطفاء الحريق على الفور:

قال الضابط لعتيق:

- «تقول إنه قال لك إن الحريق مجرد إنذار».

- «نعم..».

- «فما معنى ذلك؟».

- «الذى فهمته أن هناك أعداء لعبد المتجلى وأنهم يريدون أن يوقفوه عند حده».

- «مَنْ هؤلاء الأعداء؟».

- «هم منافسون له».

- «فيم؟».

- «فى التجارة يا بك».

- «ألم يذكر لك أسماءهم أو اسم أحد منهم».

- «كلا».

- «أتهزأ بنا؟».

- «أقسم بالطلاق أننى أقول الحقيقة».

- «وأنت -كالثور- فعلت ما يطلب منك..».

- «نعم أعترف».

- «بماذا يشتغل «الوردانى ربيع»؟

- «سمسار أراضٍ. تاجر مخدرات ومواش.. ومن رجال السياسية».

التفت الضابط إلى العسكرى الذى يسجل اعترافات عتيق وقال له:

- «لا تسجل حكاية السياسة هذه».

سارع عتيق قائلاً:

- «أمرك يا بك.. وأنا لن أتحدث عنها أبدًا».

وقال الضابط هامسًا فى أذن العمدة:

- «الوردانى ربيع كان له دور نشط فى الانتخابات الأخيرة،

وللأسف هو من المرضى عنهم، وقد نجد صعوبة فى أخذ اعترافات منه، وخاصة أنه ليس لدينا شاهد واحد حتى الآن لتأكيد ما جرى بينه وبين عتيق. . ».

قال العمدة دهشًا:

- «لكنكم تستطيعون بالتأكيد إرغامه على الاعتراف».

- «ربما يكون فى ذلك صعوبة. . لكننا بالتأكيد سنستدعيه للسؤال، ونضغط عليه ما أمكن».

- «والحل. . ».

- «الحل عند الله».

استدعى عبد المتجلى وأم صابرين لأخذ أقوالهما، وعرض إجابات عتيق عليهما، والاستنارة برأيهما، وقال عبد المتجلى وهو يدخل مكتب العمدة موجهًا الحديث لزوجه:

- «ادخلى يا سبب المصائب».

كانت أم صابرين هادئة باسمة لا يبدو عليها أثر للانفعال أو الخوف، ولم يكن لديها أو لدى زوجها شيء جديد ليقولاه. ولقد انتابهما الوساوس عندما علما بشأن الوردانى ربيع وتاريخه ونشاطه وعلاقاته، وبانت الدهشة على وجه العمدة والضابط وعبد المتجلى عندما سمعا أم صابرين تقول:

- «رجائى أن تحفظوا القضية، وتطلقوا سراح شيخ الخفراء . . لقد تنازلنا عن كل شىء وسجلوا عنى بأن الحريق لم يكن بفعل فاعل من الخارج، وربما نتج عن نيران فرن البيت الذى تركناه والنار مشتعلة به، والأحطاب قريبة منه . . ».

لم يصدق أحد أذنيه .

قال العمدة :

- «عتيق اعترف اعترافًا كاملاً».

وقال الضابط :

- «وإدانته -على أى حال- إدانة تامة، وسينال العقوبة التى يستحقها جزاء خيانته لليد التى تغدق عليه، والوظيفة التى يحمل مسئوليتها».

وقال عبد المتجلى :

- «هل أصابك الجنون يا امرأة!! كيف نصفح عن مجرم غادر ؟»

أما شيخ الخفراء فقد وثب نحوها واختطف يدها وقبلها قائلاً :

- «منذ اليوم سأكون خادمك . . بل عبدك المطيع . . وسأضحى بحياتى فداءً لك . . ».

ابتسمت أم صابرين فى ثقة وقالت :

- «أسمعتم؟؟ ماذا سنجنى من فصل شيخ الخفراء وسجنه؟؟

إن الفاعل الأثيم الأساسى سيظل حراً . . والتنازل عن القضية سيجعلنا نكسب رجلاً لن يغدر بنا مرة أخرى . . وسنجد الفرصة للإيقاع بالفاعلين الأساسيين . . واتركوا لى الوردانى ربيع فسأعرف كيف أتصرف معه . . إنه رجل له ظهر يحميه، وأقسم أننى سأزحزح هذه الظهر، أو على الأقل أجنده لصالحنا . . » .

قال العمدة وهو يضرب كفًا بكف :

- «وماذا نقول لأهل البلد» .

أجابت أم صابرين :

- «نقول : إن عتيق اتضحت براءته» .

قال عبد المتجلى فى سخرية مرة :

- «وشاربه الذى نتفوه؟» .

وضحك الجميع على الرغم من حرج الموقف، بينما قالت أم صابرين بجدية :

- «نعمل له شاربًا مستعاراً . . أو يسافر على حسابى خارج البلد فى فسحة حتى ينمو شاربه من جديد . . سيكون شاربه أقوى، وأظافره أحدّ . . »

ثم غمزت بعينها اليسرى قائلة :

- «وأنا كفيلة بدفع كل ما يترتب على هذه الأوضاع الجديدة من تكاليف».

ولم يخف معنى عباراتها الأخيرة على أحد.. وتم لها ما أرادت..

فى الطريق إلى البيت والليل شديد السواد، وعبد المتجلى يحمل فى يمينه كشافًا لإنارة الطريق عند الضرورة قال لها:

- «كيف اكتشفت أمر عتيق؟».

- «فى هذا الزمن يصعب أن تعيش بدون مخابرات خاصة».

- «ألديك قسم للمخابرات؟؟».

- «ليس بالضبط، ولكنى أستطيع تجنيد مخابرات الحكومة».

- «وماذا ستفعلين بالوردانى ربيع؟؟».

- «كما فعلت بعتيق».

سادت فترة صمت قال عبد المتجلى بعدها:

- «أين تعلمت هذا كله؟؟».

- «أتذكر ذلك الكشك الصغير الذى كنت أبيع فيه السجائر والشاى والبسكويت فى القاهرة؟».

- «نعم أتذكره».

- «هناك تعلمت».

قال عبد المتجلى فى حيرة:

- «يبدو أن شيخ المسجد كان على حق حينما قال إننا نقيم دعائم إمبراطورية للشر والفساد..».

أردفت فى ثقة:

- «لمَ هذه المبالغات؟؟ نحن ندافع عن وجودنا وحقوقنا بالطريقة التى تأتى بنتائج مفيدة.. ومن لا يفعل ذلك يكون ساذجًا».

قال بهدوء يحسد عليه، ودون توقع منها:

- «أنت طالق يا أم صابرين..».

توقفت والظلام يحيط بهما من كل جانب، اصطدمت رجله بحجر وكاد ينكسر، أمسكته بيده قبل أن يهوى، وتوقفا صامتين برهة، كان الموقف مباغتًا لكل منهما، والتبست الأمور، قالت وصوتها يرتعش:

- «هل جننت؟ أنسيت ولدك وسمعتك فى البلد و..».

قاطعها قائلاً:

- «لم أعد أطيق هذه الحياة.. أنت لست مجرد امرأة.. أنت ذئبة..».

- «تندفع دائمًا يا عبد المتجلى وتتهور».

- «لقد كظمت غيظى طويلاً؟؟».

- «ماذا كنت تريد بالضبط؟؟».

- «أريد حياتى الأولى..».

- «حياة الفقر والفراغ والبحث عن الونش المسروق؟؟».

أعطاها ظهره، ورجع إلى طريق خلفى يؤدى إلى المسجد وقبل أن تغيبه الظلمات قالت: ليبق هذا الأمر سرًا بيننا.. عدنى بذلك».

لم تكن أم صابرين تتصور أن يقدم عبد المتجلى على هذه الخطوة النكدة، وخاصة أنها تتألق فى قمة مجدها وانتصاراتها برغم حقد الحاقدين، وخبث المتآمرين، وليس لدى أم صابرين أدنى شك فيما تأتيه من أعمال وتصرفات، وضميرها -حسبما تعتقد- حى لم يمت، راض لا يشوبه تردد، فهى تشترى بستة قروش وتبيع بسبعة، وهذا ربح بسيط لا مغالاة فيه، ولعل ذلك هو سر نجاحها، إنها لم تحتكر صنفًا من الأصناف، بل هى التى كسرت الاحتكار لدى الحيتان الكبيرة، دفعت لهم ما يريدون، وقنعت بالمكسب القليل، فارتفعت أرقام التوزيع عندها، وتقدمت غيرها من التجار، حاولوا عقد اتفاق شيطانى معها للتحكم فى

الأسعار بقصد رفعها لكنها رفضت، فاضطروا إلى مجاراتها حتى يعيشوا ويستمروا على مضض، هى لا تنكر فى البداية أنها كانت تميل إلى تحقيق أكبر قدر من الربح، ولعلها أخفت أو احتكرت بعض الأصناف مجاراة لعرف التجار المستغلين، لكنها سرعان ما أدركت أن الخير كل الخير فى القناعة، فاختطت لنفسها أسلوبًا خاصًا بها، فتحقق لها قدر لا بأس به من النجاح، بل إن الموزعين الكبار وثقوا فيها، ومالوا إلى التعاون معها مما أحنق عليها منافسيها فى التجارة، ومن ناحية أخرى فقد كانت سخية اليد تغدق على أهل القرية، وتتصدق على الفقراء، وأصبح لديها جيش من الأعوان والعاملين يحترمونها، ويثقون فى كلمتها، وينفذون أوامرها، لقد كسرت شوكة العمدة وأرضت رجال مباحث التموين، وأغدقت على أصحاب السلطة، والغريب أن عبد المتجلى يعرف ذلك تمام المعرفة، فكثيراً ما كان يدور الحوار بينهما حول هذه القضية الشائكة، لكنه كان يتأرجح بين الشك واليقين، بين المثالية التى يحلم بها، والواقعية التى تهيمن على السوق، كان عبد المتجلى يتمنى أن يوجد فى هذا العصر رجل كعثمان بن عفان يتبرع بحمولة ألف بعير للجائعين والمحتاجين كما حدث فى التاريخ، لكن العصر ليس عصر الصحابة، ولكنه عصر الذئاب الجائعة التى تنهش لحوم الأحياء والأموات على حد سواء، لكن عبد المتجلى المضطرب الحائر، كان يشعر بينه وبين نفسه بقدر لا

بأس به من الارتياح لذلك الانتعاش الاقتصادى والمادى الذى ارتفع بمستواه وبمستوى أسرته، ولهذا عاش يتعذب بين أن يصدقها ويؤمن بمنهجها، وبين أن يكذبها ويدين تصرفاتها هى تتذكر أنه قال لها ذات مرة :

- «أنت السبب فى سقوطى فى الانتخابات، لقد خذلنى الشعب الذى أحبنى، حينما رآنى وقد تخليت عن مبادئى . . » .

يومها ردت عليه قائلة :

- «على العكس تمامًا، قد يخذلك شعبك لكن لسبب آخر، وهو أنك عاجز على التكيف مع الحياة، وأنك لم تعد لديك مبادئ واضحة . . أنا شخصيًا لو دخلت الانتخابات لاكتسحتها . . لأنى واضحة، وأعرف ما أقول وما أفعل» .

لكن الحادث الذى أحرق البيت وأطار صواب عبد المتجلى برغم ظهوره بمظهر القوى المتماسك الذى لا يخاف أحدًا، واعتبر الحادث بداية لكوارث أخطر وأكبر مهما كان تفسير ما جرى، ورأى أن الوقت قد حان لاتخاذ موقف صارم، فكان الطلاق الشفهى، كان لابد أن يثبت وجوده ويفعل شيئًا وخاصة بعدما سمع فى التحقيق مع عتيق، وبعد الأفكار الخطرة التى أدلت بها أم صابرين، وإفصاحها عن سياستها المستقبلية بالنسبة لمن أقدموا على الجريمة، إن أبواب الفتنة سوف تفتح على مصارعها، وإن الخطر

سيتزايد، وإذا كان الأمر هذه المرة حريقًا فقد يصبح غدًا سفكًا للدماء، وسلبًا ونهبًا، وحربًا ضروسًا، ولهذا أصابه الهلع، وتوقع بحسه أحداثًا مهولة فى المستقبل ما دامت زوجه مصرة على المضى فى طريقها دون أن تعبأ بأية أخطار متوقعة، وهو يريد الحياة الآمنة المستقرة، مع الكفاف أو حتى الفقر، ويريد أن يسعد بولديه منصور ومندور، كما يسعده أن يرضى ربه وينأى بنفسه عن مواطن الشبهات، فلو اجتمع أهل الأرض جميعًا كى يقنعوه بسلامة تصرفات أم صابرين، لبقى فى نفسه شىء من الشك والحيرة.

ذهب عبد المتجلى إلى الشهبندر وألقى بالخبر المزلزل:

- «نعم طلقتها، ولم يكن أمامى غير ذلك».

أمسك بيده بقوة:

- «أوفعلتها يا عبد المتجلى؟».

- «عن اقتناع تام..».

- «ليس هذا هو الأسلوب الصحيح يا صديقى، ثم إنه ليس عدلاً..».

- «إننى أخاف الله.. وأخاف على أهلى».

- «والحياة لا تخلو من مخاطر.. كلنا نخاف الله».

- «كان قرارى الأخير».

- «أنا تاجر مثلكم وفلاح. . وأرى أن ما تفعله أم صابرين ليس على ذلك النحو من السوء. . أنا أتعامل معها وأعرف. . والتجربة مفتوحة للصواب والخطأ، وخاصة فى مجال التجارة. . وفى الإمكان إصلاح كل شيء إذا كان هناك ما يدعو إلى الإصلاح. . أقول لك الحق. . إن أم صابرين تورد لى الأقمشة بأقل من الأسعار السابقة. . ».

نظر إليه عبد المتجلى فى شك وغضب وقال:

- «لقد طوعتكم جميعًا لإرادتها. . لماذا لا تقول أحسن السيئين؟».

- «بل طوعتنا لأسلوبها العاقل فى التجارة. . كانت القرية قبلها تعانى من اختفاء بعض السلع تمامًا. . واليوم توفر كل شيء. . والأسعار لم ترتفع فى الواقع إن لم تكن قد انخفضت، ليست هذه سوق سوداء كما يقولون».

كانا على موعد مع خطيب المسجد، وحينما دخل عليهما ذلك الاجتماع الخاص المصغر قرأ فى أعينهما ما عجز عن تفسيره، لكنه أيقن أن الأمر لا شك متعلق باعترافات عتيق وقصة الحريق، وتطوع الحاج الشهبندر بشرح قضية الطلاق، وما يشوبها من ملابسات.

●●●



قال شيخ المسجد وقد شحب وجهه :

- «طلاق؟؟ إنه أبغض الحلال إلى الله» .

رد عبد المتجلى قائلاً :

- «إننى مخطئ دائمًا فى أعينكم، وأم صابرين على حق، هل نسيت يا رجل ما قلته لى عن «إمبراطورية الشر؟؟» .

- «لا أنكر، لكن . . » .

- «لكن ماذا؟ هل تتراجع وأنت سيدنا وقدوتنا» .

- «وحتى لو تراجعت، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة، لكن الطلاق ليس علاجًا ولا حلاً، بل إن استمرار الحياة الزوجية بينكما أكثر فائدة، وييسر سبيل الإصلاح . . » .

سادت فترة صمت قال الشيخ بعدها :

- «لقد تدارست الأمر جيدًا، ووضعت يدى على سلبياته

وإيجابياته، وأنا أثق فى حكمة هذه السيدة، وفى انصياعها للحق إذا اتضحت لها الأمور . . ».

قال عبد المتجلى فى شىء من الامتعاض:

- «حدثنى إذن عن السلبيات . . إنها تقول إنها تزكى وتتصدق وتصلى وتحل أزمة البطالة، وتقنع بالربح القليل، وتوفر السلع التى كانت تختفى من الأسواق من وقت لآخر، ولم تعد تلجأ إلى أى نوع من الاحتكار، أتريد أن تقول يا مولانا شيئًا غير ذلك؟؟؟»،

لا شك أن شيخ المسجد قد شعر بالضيق والحرج لدى سماعه تلك الكلمات، لكنه تماسك وقال:

- «المشكلة الرئيسية أن خيوط السلطة قد تجمعت فى يد أم صابرين، فالعمدة والإدارة والمباحث خاضعون لها، وأهل القرية يحترمونها ويطيعونها . . وذلك لقوتها الاقتصادية أولاً ولبراعة مسلكها ثانيًا . . وهنا مكمن الخطر . . إنها فرد واحد . . ولا يوجد ضمان من أن تتحول بين يوم وليلة إلى دكتاتور . . فنخضع جميعًا لحكم الفرد المطلق . . ولنا الويل إذا حدث ذلك، فهى بشر، ما الذى يضمن لنا أنها لن تصدر أمرًا بقتل إنسان أو حبسه أو جلب الإفلاس والدمار عليه؟؟ لهذا كنت أتحدث عن «إمبراطورية الشر» . . ومما لا شك فيه أن وجودك يا عبد المتجلى إلى جوارها

سوف يكون مهمًا ومفيدًا، فأنت الرجل مهما كان الأمر، وهى دائمًا تكن لك الاحترام والحب، وجميعنا يشد بذلك . . ».

هز عبد المتجلى رأسه وهو يبتسم فى مرارة:

- «خطبة منبرية جيدة، مؤداها أننى مخطئ، وأن أم صابرين ضحية، وأننى . . ».

صرخ شيخ المسجد فى حدة:

- «كفى . . لا تتكلم أكثر من ذلك».

- «هل أخطأت؟».

- «لست عبد المتجلى الذى عرفناه قديمًا».

- «بالطبع، لأنها قلبت كيانى . . أين أنا؟ أين عبد المتجلى البرىء . . المؤمن . . الذى يمضى فى طريقه دون خوف أو تردد؟ أين الإنسان الذى لم تزعزع يقينه سياط المعتقل، وبذاءات الضباط، وليالى الجوع والحرمان؟ أين . . أين . . ؟».

وانهار عبد المتجلى داكيًا، وأخذ يجفف دموعه بمنديل أبيض، ومن بين دموعه كان يقول:

- «ماذا أفعل لو خطفوا منصور أو مندور أو وجهوا إلى أحدهما رصاصة قاتلة أو خنقوه ورموا به فى الترعة؟؟ أيكون للحياة طعم بعد ذلك؟ وكيف أحيا وأستمتع بالحياة . . أشيروا علىّ أيها

الناس . . يا أصدقائى المخلصين . . إننى أكتوى بنيران الحيرة . . يا ليت أمي لم تلدنى . . ذلك «الونش» المنحوس هو الذى جمع بينى وبينها . . لقد سرت بقدمىّ إلى حتفى» .

قال الشيخ فى غضب :

- «مازلت تلف وتدور حول قطب ذاتك» .

- «رأسى سيتحطم ، أخبرونى ماذا أفعل؟» .

قال الشيخ بثقة وحدة :

- «أعد زوجك إلى عصمتك وابدأ . . » .

وأردف الصديق التاجر (الشهبندر) كما يسمونه :

- «وعلى الفور . . إن أم صابرين ليست المرأة التى تستحق الطلاق الذى يستحق التطليق ثلاثًا هو أنت أيها الجربوع . . » .

وتضاحك الرجلان ، واستطرد التاجر ساخرًا :

- «إن ألف رجل ممن يفوقونك مالاً وجمالاً ، وحسبًا ونسبًا يتلهفون على الزواج منها ، ولو تقاعست قليلاً لطارت منك إلى الأبد ، عندئذ ستبكى من أجلها بدل الدموع دمًا . . وعندما يكبر منصور ومندور فسوف يضربانك بالعصى الغليظة على أم رأسك . . » .

سار عبد المتجلى فى الطريق والظلام يلف الكون وقد أوى الناس إلى دورهم مبكرين كالعادة، فالكهرباء لم تدخل القرية على النقيض من كثير من القرى، وتذكر عبد المتجلى وعد أم صابرين بأنها سوف تدخل الكهرباء فى أقرب وقت ممكن، وأنها قبل ذلك سوف تشترى ماكينة خاصة بالبيت الجديد لتوليد الكهرباء.. هذه ليست امرأة عادية، إنها جنية.. لكنى أحبها، وعلى الرغم من المشاكل المعتمدة التى داهمت حياتنا، إلا أنى أزداد بها شغفًا، حتى وأنا ألقى بكلمة الطلاق كنت أذوب شوقًا إليها..».

ودخل البيت..

وقعت عينه على أخته بدرية وزوجها أشرف، ورأى أمه «رمانة» قابعة عند رأس المثلث، منحنية رأسها إلى أسفل، ألقى السلام فجاءه صوت أمه:

- «لا سلام ولا كلام يا سبب المصائب».

يبدو أن بدرية وأشرف يوافقان على قولها، فليس هناك أى أثر لبادرة اعتراض عليها، توجس خيفة، توقع عاصفة من اللوم والتأنيب، قال بصوت خفيض:

- «خير يا أمى».

- «وهل وراء مثلك خير؟».

- «وماذا فعلت؟؟» .

- «يا لبجاحتك؟؟» .

هز رأسه وقال :

- «أعرف ، لسوف أردها إلى عصمتى» .

- «أم صابرين؟؟» .

قالتها أمه هازئة ، فرد :

- «نعم» .

- «لقــد تركت لك البلد ورحلت . . ولا يعلم أحــد أين ذهبت؟» .

وعرف أن سيارة قدمت ، وأن زوجه أخذت طفليها ، ودلفت إليها بسرعة ، وانطلقت إلى حيث لا يعلم أحد . . » .

ألقى بجسده على الأريكة المجاورة ووجه يتفصد عرقًا ، ولم يعلق بكلمة واحدة . .





قصد فى اليوم التالى شقتهما بالقاهرة فلم يجد لها أثرًا، وسأل الجيران، فقالوا له إنها قدمت لساعة واحدة، ثم انصرفت مع السائق نفسه التى أتى بها، وأفهمتهم أنها لن تعود هذه الأيام مرة أخرى ترى هل أقامت فى فندق؟ هل استأجرت شقة أخرى، وكيف يتصرف الآن؟؟ وعاد يترنح صوب مسجد «السيدة زينب»، وهو يحمل على كاهله أثقال ألف عام، ويستروح ذكريات البحث عن الونش، ولقائه مع أم صابرين فى «كشكها» المتواضع حيث كانت تعدل أكواب الشاى المضبوطة، وفكر أن يلتقى مع بيومى، وعلم الرغم من عزوفه عن ذلك فى البداية إلا أن الأمر تم حمسه حينما التقى به وجهًا لوجه أمام باب المسجد، وتعانقا، لم يكن عناقًا كالماضى، ولكن بيومى خادم المسجد، لاحظ أن عبد المتجلى يتشبث به كالغريق، ولم يغب ذلك عن فطنته، وقال بيومى فى دهشة :

- «ماذا بك؟؟» .

- «الدنيا ندور يا بيومى» .

- «ونحن ندور معها يا عبد المتجلى» .

- «وأصبحت من الدنيا فى سعة، ولكنى أعانى من ضيق هائل فى داخلى» .

- «هكذا الدنيا . .» .

وابتسم بيومى ثم استطرد :

- «تعطيك باليمين، وتأخذ بالشمال، ولا حيلة لنا، ولا ندرى أيهما خير . . أتبيت معي الليلة فوق السطح المعهود . .» .

شرد عبد المتجلى ثم غمغم :

- «أريد أن أنام على ظهرى في الهـواء الطلق، وأظل أنظر إلى نجوم الليل . . وأظل أحلم» .

- «أتحلم بالماضى أم بالحاضر؟» .

- «أحلم بالماضى، فالحاضر كوابيس، والغد غيب ولا أعرف له طريقًا محددًا . . لقد تحققت الأحلام فى عديد من الجوانب، لكن المهم هو أننى الآن لا أعرف طعمًا للسعادة» .

ضحك بيومى، وحاول أن يبدد سحائب الغم وقال :

- «إنك منحوس دائمًا، تستطيب الفقر والحرمان».

قال عبد المتجلى وعيناه مغرورقتان بالدموع:

- «بنت لى قصراً».

أنجبت لى قمرين: منصور ومندور.

أغرقتنى فى المال والنعيم.

وأخضعت لإرادتنا القوى المضادة.

أصبحت حاكمة بأمرها.

قال بيومى:

- «مَنْ؟؟».

- «طلقتها.. نعم طلقتها.. ولم تكد تمر بضع ساعات حتى أحرقنى الندم والشوق.. وهأنذا أجوب البلاد بحثًا عنها..».

- «أم صابرين؟».

- «نعم.. أم منصور..».

فى الظهر أكلا وجبه شهية من السمك المحفوظ والطعمية والطماطم، والباذنجان المقلى والبصل.

- «يبدو يا بيومى أن جسمى كان فى حاجة ماسة إلى مثل هذا الطعام، لقد أفسدت اللحوم معدتى، حتى أصبح مجرد رؤيتها يثير فىّ الغثيان».

أخذه بيومى فى المسار إلى شيخ الخلوة فى مسجد السيدة زينب، كان قلب عبد المتجلى هذه المرة نهبًا للخوف القلق، يخيل إليه أنه ملطخ بالعار والآثام، حتى إنه فكر فى أن يرجع من حيث أتى . . ويترك الشيخ فى خلوته ومأمنه، فالشيخ رجل عرف قدر الدنيا فركلها، وأدرك حقيقة الآخرة فأقبل عليها، وعبد المتجلى أصبح على النقيض من ذلك، ولعل الأصح هو أنه يتأرجح بين هذا وذاك، ولا يعرف الاستقرار، وذلك علامة الفشل إن لم يكن السقوط إلى الحضيض.

ألقى عبد المتجلى على الشيخ السلام، ثم هتف باكيًا، وضوء الشمعة يلقى على الحائط ظلالاً متداخلة متراقصة :

- «أتيت إليك يا مولانا مهيض الجناح» .

- «ومن الذى فعل بك ذلك يا ابن رمانة؟» .

- «لا أدرى . . » .

- «بل تدرى، لكنك بشر» .

- «قدرى ونصيبى» .

تنحنح الشيخ وقال :

- «أيها الهارب إلى الوهم، لا تريد أن تعترف بأنك الجانى والمجنى عليه، والقاتل والقتيل، والظالم والمظلوم . . ليس فى

بيوت الله زبانية يضربون الناس بالسياط ليعترفوا بالحقيقة . . تستطيع أن تعترف أو لا تعترف، ولن يرغمك أحد . . الدنيا!! يقول الإمام البصرى عنها : «شغلنى توقع بلائها عن الفرح بنعمائها» .

ووجد عبد المتجلى نفسه يقول :

- «لقد أخطأت» .

- «وما الفائدة؟» .

- «علمى بالخطأ بداية الإصلاح» .

- «لكنك تحبها» .

رد عبد المتجلى بانفعال :

- «أم صابرين؟» .

- «بل الدنيا . . » .

- «لكنى لا أفكر إلا فى أم صابرين الآن . . لقد طلقتها ظلمًا . . » .

هز الشيخ رأسه قائلاً :

- «طلقتها ولم تطلقها . . » .

- «هذا حق . . إنها لم تزل تسكن قلبى» .

- «دنيا».

- «أين أجدها يا مولانا».

- «أنا لا أعرف الغيب، ولكنها بالتأكيد فى الدنيا.. ابحث تجد..».

- «هائم على وجهى لا أعرف لى طريقًا».

- «ذلك هو الضلال البعيد».

- «أنا مؤمن وأخشى الله».

- «وكيف يكون المؤمن مهيض الجناح يا ابن رمانة؟ العاشقون يطيرون بغير أجنحة، وقلوبهم لها عيون.. هم محلقون دائمًا.. إن المؤمن الحقيقى هو الذى لا يخاف الغد.. يعمل ويعمل ويترك الأمر لله.. أصبحت سلطانًا يا ابن رمانة.. السلاطين يخافون زوال الملك والنفوذ، وأنت أيها الراقص فى وحل الدنيا..».

- «إنها حقى، ولهذا خلقها الله».

- «أجل، لكن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. أنت لم تعد تقرأ القرآن كالأمس.. لم تعد لك قضية كبرى».

سادت فترة صمت قال عبد المتجلى بعدها:

- «أأذهب؟».

- «اذهب واغتسل وابترد، وصل صلاة مودّع».

- «هل سأموت؟».

- ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

- «عظنى يا شيخنا الجليل».

- «قل آمنت بالله ثم استقم..».

خرج:

أخذ يتجول فى ميدان السيدة على غير هدى، وكلمات الشيخ تطن فى رأسه المتعب، الباعة يقفون فوق عربائهم «الكارو» يرقصون ويغنون وينادون على بضائعهم «شلن.. كل حاجة بشلن.. يا خراب بيتك يا خواجة.. الحق يا رجل.. الحقى يا ست.. كله بشلن» مسجلات الصوت تذيع القرآن الكريم، وأغانى عدوية وخضرة وليلى نظمى وأحاديث الشيخ كشك، ومدائح المطربين الشعبيين، وقفشات «ساعة لقلبك» ومقتطفات من المسرحيات الكوميدية، وقرر العودة إلى «كفر أبو سالم» دون أن يودع بيومى، ركب الحافلة المكيفة الهواء فى أماكن الدرجة الأولى، كانت الرحلة إلى عاصمة الإقليم مريحة، لكن التكملة إلى القرية كانت زحامًا وغبارًا وضجيجًا، ودخل القرية يتوارى من الخيبة والحزن والضياع، عندما دخل البيت بعد العشاء، كانت أمه متكومة

فى ركن من الصالة، ألقى بجسده على أريكة تمّ تنجيدها بعناية، الصمت والأسى يغلفان المكان قالت أمه فى ضيق:

- «جئت بدونها؟».

لم يجب، بل تململ فى مكانه، وأخذ ينظر هنا وهناك فى قلق دون غاية، وأخيراً قال:

- «ألم يأت خبر عنها».

قالت أمه وهى تلوح بيديها كمن تندب حظها:

- «البلد ممتلئة بالأخبار».

- «ماذا يقولون؟».

- «تكلمى يا أمى، إن فىّ ما يكفينى».

- «يقولون إنها فىّ قصر الجيوشى» بك، صاحب الملايين، فى طنطا وإنها ستتزوجه، وسوف يطلق نسوانه الثلاثة من أجلها..».

هب واقفًا وصرخ:

- «هذا جنون، أم صابرين تفعل ذلك؟؟».

- «البادى أظلم».

- «لو حدث ذلك فسأقتلها وأقتله».

- «انخمد مكانك. . ولا داعى للكلام الفارغ. . ويقولون أيضًا إنها ذهبت لمصر عند تاجر كبير كان يعطف عليها فى الزمن الغابر. . وآخرون يؤكدون أنهم رأوها فى سيارة عمدة «كفر الصقور» صاحب العزبة القبلية. . وليس للناس حديث إلا عن صابرين. . والغريب أن أعمالها التجارية لم تتوقف. . ».

وانقسم أهل القرية إلى فريقين، فريق منحاز إلى أم صابرين وهو الغالبية العظمى، وفريق محدود العدد- أغلبه من شباب المدارس - يؤيد تصرفات عبد المتجلي، ويحمد فيه نخوته ومروءته وتشبثه بالمبادئ، وكان العمدة بطبيعة الحال من الفريق الأول، بل تناقل الناس أخبارًا تشير إلى أن العمدة قد توعد عبد المتجلى، وهدده بأنه يمزقه إربابًا إربًا ويرمى لحمه للكلاب، والواقع أن غالبية القرية كانت متعاطفة مع أم صابرين وترى أنها امرأة «طيبة» ذكية، لم تؤذ أحدًا، أو تنتقم من أحد، حتى الذين أحرقوا دارها عفت عنهم، وأفسحت لهم مجال التوبة، ولقد استطاعت - حسب ما يرون - أن تملأ القرية بالخيرات، وتوفر السلع، وتفتح طريق الرزق أمام الكثيرين، حتى الصبية كانوا يجدون فرصًا للكسب، ولم تبخل على بعض المحتاجين بالقروض البسيطة التى يطلبونها منها، كما تجامل الناس فى الأفراح والمآتم والكوارث، وتساعد بعض الفلاحين العاجزين فى شراء بهائم لهم بالمشاركة، واشترت لهم ماكينات للحرث

والزراعة والرى تؤجرها لهم بسعر منخفض، لقد حلت لهم الكثير من المشاكل التى عجزت الحكومة عن حلها، كما قامت بترميم وصيانة المساجد والمدارس، ووفرت حافلة كبيرة تشير بين القرية وعاصمة الإقليم، وأخرى للمركز، كى لا يجدوا مشقة فى السفر، وبأجر معقول، ولم تمانع فى شراء محاصيل الأرض بأزيد قليلاً من سعر السوق، بل إنها ساهمت فى بناء «مقابر» للصدقة، بعد أن تأزم الموقف، ولم تعد المقابر فى القرية تتسع لاستقبال الموتى، ومن الأمور اللافتة للنظر أنها رصدت جوائز للمتفوقين فى مدارس القرية، وللصبية الذين يجيدون حفظ القرآن، وقدمت معونات مالية لأصحاب الكتاتيب، وبنت للموظفين المغتربين مساكن اقتصادية بسيطة التكلفة كى يجدوا المأوى الرخيص الإيجار، فيقوموا بأعمالهم فى خدمة أهل القرية على الوجه الأكمل، وأمام ذلك كله قال بعض الرجال البسطاء «إن أم صابرين وليّة من أولياء الله الصالحين».

قالت رمانة لولدها عبد المتجلى:

- «اذهب إلى حضرة العمدة.. هذا الملعون لا شك يعرف أين هى الآن.. لقد بعث فى طلبك ثلاث مرات».

تردد عبد المتجلى فى البداية، إنه لا يحب هذا الرجل على الرغم من تحسن العلاقات فى المرحلة الأخيرة بسبب المصالح

المشتركة بينه وبين أم صابرين، ولا يثق فيه فهو ثعبان يكمن فى حجره، يتحين الفرص حتى يلدغ لدغته القاتلة، لكن ما الحيلة؟ ليس أمامه سوى أن يذهب إليه من أجل عيون أم صابرين، إنه على استعداد الآن لأن يفعل أى شىء حتى تعود إليه هى وأطفالها الثلاثة.

عندما انفرد بحضرة العمدة قال:

- «أتذكر عندما قررت السفر للبحث عن الونش ماذا قلت لك؟؟».

- «لا أتذكر».

- «قلت لك يا عبد المتجلى اذهب أولاً إلى طبيب نفسى وأبحث لك عن علاج..».

- «هذه إهانة يا حضرة العمدة وأنا أرفضها».

اكفهر وجه العمدة وتنحنح وقال:

- «هل أم صابرين تستحق منك هذه الإهانة البالغة؟».

قال عبد المتجلى فى حدة:

- «أين هى؟».

- «وما شأنك بها».

- «إنها زوجتى».

- «كان. . وكان فعل ماض».

فقال بإصرار:

- «وما زالت زوجتى».

- «أهكذا ببساطة؟؟».

أدرك عبد المتجلى أن أسلوب التحدى والمجابهة لن يجدى مع العمدة قتيلاً، ولهذا رأى من الحكمة أن يتعامل معه بطريقة أخرى أقل حدة.

- «تعرف يا حضرة العمدة أنى أحبها».

- «وكيف تفسر تطليقك لها؟».

- «لحظة غضب، وقد ندمت عليها. .».

- «الصلح خير».

- «صدقت يا عمدة».

- «لكن لكل شىء ثمن».

- «كم؟».

- «بدأنا نتفاهم. . ما دام الأمر كذلك فسوف أخفف عنك. . ثلاثة آلاف جنيه فقط. .».

- «مبلغ كبير لا أمتلكه».

- «يكفى أن تكتب لى ورقة بالمبلغ . . إنى لا آخذه لنفسى . . ثم إنه بمثابة تأديب حتى لا «تلعب» بكلمة الطلاق مرة أخرى . . لقد كانت إهانة لا يمحوها إلا الدم . . ».

هتف عبد المتجلى :

- «الدم؟؟».

- «نعم . . ».

- «لم أكن أعلم».

- «افتح نوافذ مخك يا عبد المتجلى . . نحن فى زمن الكمبيوتر وسفن الفضاء والرعب النووى . . ».

قال عبد المتجلى فى سخرية خفية :

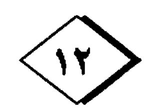
- «أعترف أنك أكثر تقدمية منى يا حضرة العمدة».

قال العمدة وهو يهز رأسه كحكيم :

- «المسألة ليست تقدمية ولا تأخرية . . إنها مجرد تشغيل مخ . . هل فهمت يا أبا مخ».

وتضاحكا . .

●●●



لشد ما تغيرت أحوال كفر أبو سالم فى هذه الحقبة من الزمن ، لقد تضافرت عوامل عدة لصنع ذلك التغيير ، وكان من أبرزها تنشيط الحركة التجارية ، والإقبال على زراعة «العنب النباتي» بدلاً من المحاصيل التقليدية ، وكثرة عدد العاملين فى الخارج خاصة فى العراق التى تخوض أتون الحرب ، وفى الأردن والسعودية واليمن وباقى دول الخليج ، وسبب آخر هو تجريف الأراضى الزراعية وصناعة طوب المبانى منها ، وانتشار حرف جديدة فى القرية تتعلق بصناعة المبانى والكهرباء وميكانيكا السيارات وغيرها ، إن وجه الحياة يتغير بسرعة فى القرية ، وتتغير معه الأخلاق والموازين ، ولقد حاول البعض أن يقاوم هذه الحياة الجديدة ، أو على على الأقل يضع لها الضوابط التى تمنع الخلل والانحراف ، ولكن دون جدوى ، وفى هذه الآونة كان لافتًا للنظر أن تظهر عصابة من الفلاحين العائدين من الخارج تسرق وتقتل حتى تم الإمساك

بأفرادها بالمصادفة بعد قتلهم لسائق السيارة الذى كان يرافقهم فى طلعاتهم الشريرة خوفًا من أن يفشى أسرارهم، واتضح أن هذه العصابة كانت تدمن المخدرات، وتعتدى على أعراض النساء، ووجدت الإدارة صعوبة بالغة فى السيطرة على الأوضاع، لكنها كانت تحاول- ما وسعها الجهد- التقليل أو التخفيف من أثر هذه الانحراف المتفشية.

ونظرًا لاشتداد أزمة المساكن فى المركز وفى عاصمة الإقليم، فقد عجز معظم موظفى القرية الذين يعملون فى المدينة عن العثور على سكن لهم هناك، فآثروا الإقامة فى القرية على أن يذهبوا كل صباح إلى أعمالهم، ثم يعودوا بعد الظهر إلى القرية، وهذا بدوره قد أنعش الأوضاع الاقتصادية، وظهرت الفتيات الصغيرات فى شوارع القرية وحاراتها وحقولها وهن يلبسن الزى الإفرنجى، وأصبحت ظاهرة «المغازلة» فى الطريق شائعة، كما كثرت قصص الحب الرومانسى بين الفتيان والفتيات، تقليدًا لما يشاهدونه فى التليفزيون بعد أن دخلت الكهرباء البيوت، أو يسمعونه فى الإذاعة، أو يقرأونه فى القصص والمجلات والصحف، وكرد فعل لذلك فقد تضاعفت أعداد الشباب المنضمين إلى التنظيمات الإسلامية أولئك الذين اعتبروا أنفسهم حراسًا للقيم والمبادئ الدينية، بعد ذلك التردى فى السلوك

والأخلاق، ولقد نقموا على الحكومة لتركها الحبل على الغارب باسم الحرية الشخصية، وتضييقها الخناق على دعاة الإسلام، وإقدامها على تزييف الانتخابات بصورة وقحة علنية، وهيمنة الرشوة والوساطات فى قضاء الحاجات، مما ينذر بكوارث اجتماعية وسياسية لا يعلم إلا الله مداها.

وكانت استجابات شخصيات القرية المهمة للأحداث متباينة، فالعمدة إبراهيم صوان هو صوت الحكومة والمعبر عن إرادتها وفلسفتها، والمنفذ لأوامرها، وهو فى الوقت ذاته لا ينسى مصالحة الخاصة إذ هى الأهم فى جدول اهتماماته وأولوياته، دون النظر إلى مشروعية أو عدم مشروعية ما يأتيه من تصرفات، فالجميع يستفيدون وينمون دخلهم، وهو ليس أقل منهم شأنًا أو استحقاقًا، وشيخ المسجد ساخط ناقم، ويحاول أن يواجه التيار بما أوتى من بيان ونصح وإرشاد، فى زمن قل فيه تأثير الكلام، وتوارى صوت الضمير، وكان يردد دائمًا «إننا نسير بخطى حثيثة إلى الهاويه، ويكاد الطوفان أن يجرفنا جميعًا، إذا لم نتدرك الأمر بعناية وحكمة، وأنا لم أستسلم لليأس بعد، فالرسول يقول: «الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة»، والأمم تمر بمراحل مرض، لكنها تشفى وتصح إذا وقعت على العلاج الناجع، ولا شفاء إلا بالعودة إلى كتاب الله»، وأما التاجر الفلاح وأشهر تاجر أقمشة، يعتقد أنه

يجب أن نمارس الحياة بحكمة وروية وتسامح، وأن نوجه السفينة ما أمكن الوجهة الصحيحة بشىء من الصبر واللين؛ لأن رفض الحياة الراهنة لن يؤدى إلى النتيجة المرجوة، فعلينا بالملاينة والمسايسة حتى لا تحدث الانفجارات المدمرة، وكل شىء يتغير، والدوام لله وحده، لكنه أيضًا لا ينكر أن الاعتصام بحبل الله المتين هو حرز الأمن والأمان حتى لا يحدث انفجار البركان.

أما عتيق شيخ الخفراء فلا يفكر فى شىء من هذا كله، إن وظيفته محددة، ألا وهى تنفيذ أوامر حضرة العمدة التى هى أوامر الحكومة فى الأصل، مجرد أداة تنفيذية لا تعقل ولا تبصر، إذ لا فائدة فى التفكير أو الاعتراض؛ لأنه لو كانت له وجهة نظر خاصة فسيقع فيما لا تحمد عقباه من مخالفات وعقوبات، وهو رجل عسكرى أو شبه عسكرى، لا يحق له أن يسأل أو يعدل لكن لا بأس أن يأكل من الفتات، ويقنع برشوة صغيرة يأخذها خفية اقتداء بسيده المبجل حضرة العمدة، وللعمدة الحق كل الحق فى أن يفعل ما يشاء، ويأخذ ما يريد بالطريقة التى يراها مناسبة، ولا دخل للحلال أو الحرم فى شىء من هذا كله.

أما أم صابرين فلا تحتاج إلى تقييم إن نشاطها يحدد ماهية ما تؤمن به، لقد تلقت دروس العمل الحر الأولى فى «الكشك» الذى

كانت تقف فيه فى القاهرة العاصمة الكبيرة، وتبيع بضائعها القليلة، إلى جانب أنها كانت «سمسارة عقارات» ووسيطة فى تأجير الشقق المفروشة وغير المفروشة، وأخذ «الخلوات» «والمقدمات» كما أنها يمكن أن تكون وسيطة فى البيع والشراء بالنسبة للعقارات الصغيرة، وبيع الأثاث المستعمل، ولا بأس من أن تكون «خاطبة» فى بعض الأحيان، بل إن بعض جهات الأمن كانت تستفيد منها فى جميع الأخبار المهمة في الشارع وفى أماكن التجمعات إن تيسرت لها، واليوم هى تاجرة كبيرة لا ترى فى نشاطها أى حرج، وإذا كانت الحكومة قررت ونادت بفصل الدين عن السياسة، فإن أم صابرين لا ترى بأسًا فى فصل التعاملات التجارية والبنكية أيضًا من الدين، وهى لا تخرج عما تفعله الحكومة فى سياستها وتجارتها وبنوكها، وكل ما يهمـا أن تكون رحيمة بالناس، لا تحتكر السلع طواعية، ولا تستغل عرق العاملين، وتتصدق على الفقراء والمساكين، وتفتح باب الرزق (الحلال) أمام الراغبين، وهذه الأمور الأخلاقية فى الواقع محصورة لديها فى «الشفقة»، وبعد ذلك لها أن تبيع وتشترى بالطريقة التى تحقق لها الربح، فلا بأس من أن تقدم المنح والهدايا وربما الرشاوى تحت أى مسمى من المسميات الخادعة، ما دام ذلك هو الأسلوب الوحيد الذى يمكنها من تنفيذ سياستها وطموحاتها، وما دام غالبية الناس على هذا النحو من السلوك فلماذا تتعب نفسها

- كما يفعل عبد المتجلى - وتتوزع بين الرفض والقبول، والشك واليقين، والإقدام والإحجام؟؟ لقد كثرت القوانين الموضوعة وتعارضت وتناقضت، وهى ليس لديها الوقت بل والرغبة فى أن تقف حائرة تتساءل، إن كثرة الحيرة والتردد مضيعة للوقت والفرص.

أما «عبد المتجلى» فهو كالتى رقصت على السلم كما يقولون فى المثل الشعبى، يثور ثم يهدأ، ويتعذب بوخزات الضمير، ثم يتخلص من همومه ويقبل بما هو كائن، ترتفع به مبادؤه إلى أوج السماء، ثم تهبط به الحاجة وسلطان الواقع إلى أوحال الأرض، أحيانًا يعتقد أنه قد سقط، وانتهت مبادؤه الخالدة، وأحيانًا أخرى يرى أن الحياة الجديدة تقتضى شيئًا من المرونة والذكاء، وتحليل الأمور بصورة عملية واقعية دون جمود أو تحجر، من هنا كان اضطرابه فى التصرفات ومأساته العميقة الجذور التى يتلظى بنيرانها، أما أخته بدرية فهى سعيدة بزوجها أشرف، سعيدة ببحبوحة العيش التى وفرتها لهم أم صابرين، ولا تجد أدنى رغبة فى التفكير أبعد من ذلك، إنها تنتظر أن ينعم الله عليها بالحمل فتتم فرحتها وتصبح أمًّا بعد شهور، ثم إنها تنتظر الخطاب الذى سيأتيها من «القوى العاملة» حتى تصبح موظفة يشار إليها بالبنان مهما قل الراتب..

●●●

كان طلاق أم صابرين حدثًا بالغ الدلالة، إذ يمثل صدامًا بين منهجين فى الحياة، وفكرين مختلفين، فمن سيكسب الجولة ومن سيخسر، أم صابرين أم عبد المتجلى، بالأمس كان عبد المتجلى داعية ورائد التحرير فى القرية، وحامل لواء الدعوة إلى الإصلاح والعدالة والإنتاج، وكان عدواً لدودًا للاستغلال وقهر السلطة للشعب، وسوط عذاب «للانفتاحيين» والانفتاح، واليوم يريد أن يعود للوقوف على الأرض الصلبة التى انطلق منها ذات صباح ليبحث عن «الونش المسروق»، ويفضح الفساد الذى ينخر كالسوس فى جسد الإدارة والنظام، فهل كان عبد المتجلى على صواب أم أن أم صابرين هى التى تسير فى الطريق الصحيح؟؟ هل سيصمد عبد المتجلى، ويرفض الممارسات الجديدة التى تشارك فيها حليلته أو قرينته أم سيستسلم للتيار ويرضخ، يقول عبد المتجلى فى آخر أحاديثه ردًا على ذلك:

«الأمر ليس على هذا النحو من التصور، إن الإنسان يستطيع أن يعيش عصره، ويستفيد من الإنجازات الجديدة دون أن يتخلى عن القيم والمبادئ التى آمن بها، وعمل طويلاً من أجلها، والحياة ليست سوادًا أو بياضًا، ولكن هناك العديد من الألوان والظلال، أما الوقوف عند الأبيض وحده أو الأسود وحده فهو ضيق أفق، هو العمى بعينه، ثم إنه يؤدى إلى التحجر ومجافاة الطبيعة

والفطرة التى فطر الله الناس عليها، ولهذا قررت أن أتصالح مع أم صابرين وأردها إلى عصمتى مرة أخرى، وأرجو ألا تتكرر هذه المأساة مرة أخرى، والصلح لا يعنى التخلى عن مبادئ، فسأظل وفيًا لهذه المبادئ، متشبثًا بها، لكنى سأحاول فى المرحلة الجديدة اتخاذ وسائل أكثر حكمة وروية ووعيًا».

وكان عبد المتجلى كل يوم يتصل بالعمدة، ويستحثه على إتمام الصلح قبل أن تنتهى «العدة»، كما كان عبد المتجلى يكرر: «إن طلاق الغاضب الخارج عن وعيه لا يقع، وأنا كنت فى حالة غير طبيعية، وكان العمدة يطمئنه بأن المفاوضات جارية، وأنها قاربت على الانتهاء إن شاء الله، لكن العمدة لم يفصح عن مكان تواجد أم صابرين، كما أنه لم ينف أن بعض نهازى الفرص من التجار الكبار فى المنطقة وخارج المنطقة، حاولوا الصيد فى الماء العكر، وكانوا يتعشمون أن ينالوا رضى أم صابرين حتى توافق على زواجهم منها، وكانت هذه النقطة تثير قلق عبد المتجلى وحنقه، لدرجة أنه كان يتذلل للعمدة، ويؤكد له أنه موافق على أية شروط تتقدم بها أم صابرين حتى يتم الصلح، وكان العمدة يرمقه بعين خبيثة، ويقول:

- «أيها العاشق الولهان.. لمالها أم لجمالها».

ويقسم عبد المتجلى ويقول:

- «لذاتها يا حضرة العمدة، أنت تعلم أنى لست طامعًا فى شىء من حطام الدنيا. . ».

ويغمز العمدة بإحدى عينيه ويقول:

- «أم صابرين هى الدنيا بكل إغراءاتها وخيراتها. . ».

- «قلت لك أحبها لذاتها. . ».

- «أيها الملعون كيف وقعت على هذا الكنز؟؟».

- وقفت إلى جوارى وقت المحن، اختارها قلبى قبل أن ينطق لسانى. . كنت لا أملك من حطام الدنيا شيئًا يذكر، وكانت هى مجرد بائعة متواضعة فى «كشك». . كانت تحوطنى بحنو لم أعرفه طول حياتى، فتحت أمام قلبى وعقلى أبواب عوالم عامرة بالجمال والحب. . ».

- «ولهذا طلقتها».

- «نزوة. . ».

- «حسبناك من العباد والزهاد».

- «وهل يمنع ذلك من. . ؟».

أشاح العمدة بيده المعروفة، وقال:

- «كفى، أعرف أنك تجيد صناعة الكلام».

- «أتكلم من قلبى» .

- «كلنا يزعم ذلك» .

- «أنا لست كعامة الناس» .

- «والدليل؟» .

- «تاريخى الذى تعرفه يا عمدة» .

- «كان جنونًا فى جنون» .

- «أعتز بهذا النوع من الجنون» .

- «بالنسبة لى يا عبد المتجلى فقد انتهى عصر الحب، ولم أعد أفكر إلا فيما ينفعنى وينفع أهل بيتى . . » .

- «لا بديل للحب . . سلنى أجبك . . حتى ولو كان عمرى مائة عام» .

- «عندما يشيخ الإنسان فلن تنفعه حقن الهرمونات، ولا أعشاب العطارين . . » .

- «لا أفكر على هذا النحو» .

- «ستفكر فيه يومًا» .

- «الحب عندى يختلف» .

- «مجنون طوال حياتك».

قال عبد المتجلى فى ملل:

- «متى أرى أم صابرين؟».

- «غدًا بعد صلاة الفجر، سآخذك فى «خنزيرتى» ونرحل..».

- «إلى أين؟».

- «إنها مهمة سرية.. عليك أن تتبعنى صامتًا، ولا تخبر أحدًا».

- «أخاف أن يكون كمينًا».

- «إذن لك الحق فى أن ترفض المجىء..».

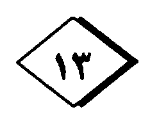
هب عبد المتجلى واقفًا وقال:

- «لا.. لا.. حتمًا سآتى معك ولو إلى الجحيم».

قهقه العمدة وقال:

- «بدأت تعقل».

●●●



لم تتوقف حركة التجارة الخاصة بأم صابرين برغم غيابها، وظهر فى أسواقها «الوردانى ربيع» الذى اتهمه عتيق بأنه المحرض على حرق المنزل، وبدا أن الوردانى أصبح من رجالات أم صابرين المخلصين الأوفياء، يتفانى فى خدمتها- كما توقعت- كأنما يريد أن يكفر عن سيئاته، فمن كان يتصور أن تصفح عنه، وتغدق عليه، وهو الذى كان مخلبًا حادًا من مخالب أعدائها ومنافسيها، ومع ذلك فقد كان الوردانى ربيع يتوجس خيفة من أصدقاء الأمس الذين تنكر لهم وباعهم، ولهذا فقد كان حريصًا على حياته، فقد تودى بحياته رصاصة تسدد إليه فى الظلام، والواقع أنه كان فى حيرة من أمره، فلو ظل مرتبطًا بأعداء أم صابرين لاستطاعت أن تقذف به فى السجن بعد تواطئه فى جريمة الحرق، بل إنها تستطيع أن تقضى على حياته بطريقة أو بأخرى، ولم يكن أيضًا بمنجى من الخطر عند انضمامه إلى جيش أم صابرين، لكنه قام بعملية حسابية بسيطة

أدرك بعدها ببساطة أن أم صابرين هى الأقوى، وهى التى تدفع أكثر، فلم يتردد فى الانحياز إليها، إن كل ما يهمه هو المنفعة، والأعمار بيد الله، فضلاً عن أن أعداء أم صابرين قد انكشفت حيلهم وعوراتهم له، ومن ثم أصبح فى إمكانه أن يوقع بهم أضراراً جسيمة، وبالإضافة إلى ذلك فإن له بعض الأصدقاء ما زالوا يعملون هناك، وهو على صلة وثيقة بهم، بل إنه يجندهم لجمع الأخبار التى تستفيد منها أم صابرين، ومن الغريب أن «الوردانى ربيع» كان أحد القلائل الذين يعرفون مخبأ أم صابرين أثناء فترة الطلاق، ويحمل عنها الأمور التى تسير حركة العمل، كما ينقل إليها الأخبار التى تهمها.

واستشاطت أم صابرين غضبًا فى مخبئها عندما علمت أن أعداءها قد لجأوا إلى سلاح الشائعات والأقاويل الكاذبة الزائفة، فقد زعموا أن أم صابرين تشرب الخمر، وتجالس الرجال، وتأتى فى ناديها المنكر، وأنها صاحبة وجهين: وجه طاهر برىء يراه الناس فى الصباح وأثناء المعاملات التجارية والاجتماعية، ووجه داعر شرير يختبئ فى الظلم ويمارس الخطيئة والفحشاء والمؤامرات، وعندما بلغت هذه الأخبار مسامعها اشتعلت غيظًا، وقالت للعمدة:

- «الموت أهون عندى من هذا التجنى . . إنهم يوجهون إلى سمعتى وكرامتى سهامًا قاتلة، ونفسى تحدثنى بأن أدبر لقطع رقابهم، وسفك دمائهم . . هذه خسة ونذالة . . » .

قال العمدة إبراهيم صوان بهدوء يحسد عليه :

- «أيتها المرأة الطيبة . . الناس يعرفونك حق المعرفة حتى الأعداء يسلمون بطهارة ذيلك . . لكنها الحرب التى لا تعترف بالمبادئ . . يسمونها الحرب الإعلامية . . ولو بدأنا فى القتل ما توقف سفك الدماء . . طريق الجريمة مفتوح إلى ما لا نهاية، ولا فائدة منه، ثم إنه وسيلة الحمقى وضعاف العقول . . لقد قال الناس عنى أكثر مما قاله مالك فى الخمر . . قالوا مزور . . غشاش . . ظالم . . نصاب . . مرتش . . لص . . زان . . حشاش . . مدمن خمر . . جاسوس للحكومة . . إنهم يخلطون بين واجباتى الأمنية، وأخلاقى الشخصية . . أنا لست ملاكًا، لكنى لست على هذا النحو من السوء . . عمومًا أنا أفضل الأشرار» .

غمغمت فى غضب :

- «هذا العالم فاسد قذر، إنى أكرهه . . أكرهه . . » .

لقد استطاعت هذه الشائعات أن تسلبها نومها، وتؤرق عليها سعادتها، وغطت على قضية الطلاق التى أثارتها، وكثيراً ما كانت

تنسى الطلاق والتجارة، وتفكر فى أسى وغضب فى هذه الشائعات الكاذبة المنحطة، والغريب أنها لم تذق للخمر طعمًا طوال حياتها، ولم تفكر فى المخدرات قط، وزوجها عبد المتجلى الرجل الطيب المحب المخلص، برغم ما يحدث من خلافاتها لا يضاهيه فى نظرها مائة رجل، ثم إنها تشمئز من النسوة اللاتى يبعن شرفهن مقابل نزوة طارئة، أو لقبض دراهم معدودة. . فى خيالها كل آن تستعيد صور أعدائها الذين روجوا هذه الشائعات، وتطلق عليهم رصاص الوهم، وتذبحهم بسكاكين الأحلام، تتخيلهم ثعابين وأفاعى، وتسحق رؤوسهم بحذائها، هناك دائمًا حرب شعواء فى سوق المال والتجارة، لكن النذالة لا يجب أن تصل إلى هذا الحد، بل إن معظم رجال المال فى المدينة يأتون الفواحش والمنكر علانية، ويفتخرون بمثل هذه الأعمال، ولا تسبب لهم أضرارًا تذكر، أما هنا فى الريف مع الفلاحين، فإن هذه الشائعات تسبب أضرارًا بالغًا، فضلاً عن أن أم صابرين بطبيعتها تشمئز من إلصاق مثل هذه التهم الكاذبة بها، إنها على استعداد لأن تدفع نصف مالها لتمسك برقاب هؤلاء المتآمرين، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لو تفرغت لمثل هذا الأمر لما استطاعت أن تنجز عملاً من الأعمال، ولهذا آثرت الصمت وفكرت أن ترد بأسلوب آخر، وأسلوب المساهمة فى المنشآت الخيرية، والأنشطة الدينية، والتحرك الدائم فى ظل زوجها.

●●●

دخل عليها عبد المتجلى غرفتها فى مخبئها، كانت تبدو أكثر شحوبًا ونحافة وأناقة وجمالاً، قرأ فى عينيها قصائد العتاب والعذاب، لمح على وجهها إشراقات الود القديم، والذكريات الحلوة، كان معه العمدة والمأذون، همّ بأن يحتضنها بين ذراعيه لكنه استحيا، عانقها وقبلها بخياله، وهام فى الدنيا الرائعة التى وشتها بإخلاصها وحبها وكلماتها الصادقة طوال فترة الزواج العامرة بالعواصف والأحداث.. تلفت فوجد منصور ومندور نائمين.. أما صابرين فقد كانت جالسة إلى جوار أمها ترقبه بعينين، نافذتين دون أن تنطق بكلمة، لكنه مد إليها ذراعيه فهرولت، وارتمت على صدره وهى باسمه:

- «والله فيك الخير يا صابرين».

عادت إلى بيتها فى هدوء تحت جنح الظلام، كانت القرية نائمة، والليل قد انتصف، وأصوات المغنين الخافتة تترامى والهة من مذياع فى هذا البيت أو ذاك، وبعض الكلاب تنبح، حينما دلفت أم صابرين إلى الداخل سمعت صوت العجوز رمانة وكأنه ينبعث من كهف، مرتعشًا من الانفعالات والوهن:

- «نورت بيتك يا بنت الأصول».

أطربتها حرارة اللقاء، وأسكرتها كلمة «بنت الأصول» فكرت لحظات فى أصلها وحسبها ونسبها، ولكنها سرعان ما استبعدت

هذا التفكير الذى لا طائل من ورائه، إنها اليوم أم صابرين، زوجة الأستاذ عبد المتجلى، صاحبة الحول والطول، وهذا يكفى، حينما وجدت نفسها وحيدة مع عبد المتجلى قال:

- «كأننا افترقنا من ألف عام».

قالت ضاحكة:

- «أيها الدجال..».

لم يغضب، بل أردف:

- «ذلك هو شعورى الحقيقى.. ونحن وحدنا أمام الله..».

التقط أنفه رائحة ذكية مثيرة:

- «هل أنا فى الجنة؟».

- «لا.. فى كفر أبو سالم».

- «أنا فى دنيا غير الدنيا».

وجهضت فرحته بقولها:

- «والطلاق».

بان الضيق فى عينيه وقال:

- «ندمت ندامة الكسعى».

ضحكت وقالت:

- «مَنْ هو هذا الكسعى . . تأتينى بأسماء غريبة . . » .

- «رجل عربى قديم وقع فى مأزق كمأزقى» .

- «دعك من هذا الهراء . . » .

أراد أن يحكى لها قصة «الكسعى» فى إصرار، لكنها أصرت على عدم تضييع الوقت الجميل فيما لا جدوى منه، وأشارت إليه بأن يحكيها غداً للأطفال الذين ما زالوا يتحلقون حوله من وقت لآخر كى يروى لهم القصص المفيدة الجذابة .

قال عبد المتجلى متفلسفًا :

- «الحياة نوعان : عقلية وعاطفية» .

لم تكن لديها رغبة فى الجواب الجاد، فقالت باقتضاب :

- «حسن . . » .

- «وأنا الآن فى طور عاطفى بحت» .

فهقهت قائلة :

- «ثور الله فى برسيمه» .

- «قلت طور وليس ثور» .

- «لا فرق بينهما . . » .

- «فرق كبير يا عفريته» .

- «أنت كثير الكلام الليلة» .

- «من فرحتى يا روحى» .

أشرق الصباح على وجهين هادئين باسمين، وانجابت سحب العاصفة الداكنة، وذابت أحزان الأمس، كان منصور ومندور يلعبان مع أختهما صابرين، وجاءت العجوز رمانة لتشاركهم طعام الفطور وهى سعيدة نشطة، وبدا واضحًا أنها ما زالت تتمتع بشهية كافية للطعام، والدليل على ذلك كمية البيض الكبيرة المقلية بالسمن البلدى التى ازدرتها، قال عبد المتجلى مداعبًا :

- «البيض يزيد الكوليسترول فى الدم يا أمى . .» .

- «لا أعرف كسترول ولا غيره . . ما هذه البدع التى تتحدثون عنها كل يوم . .» .

- «إنه يرفع الضغط، ويسبب النوبات القلبية، و . .» .

قاطعته قائلة :

- «المهم أن تنام مرتاح البال، ولا تحمل الهموم . .» .

كان يوم واحد كافيًا لمحو ما تخلف من آلام وأحزان، ولاحظ عبد المتجلى أن أم صابرين تفكر بعمق فى أمر ذى بال، إنه يعرفها

جيداً، ويعرف أن تفكيرها الجاد يتجلى عن نتائج مهمة، وفى مساء اليوم التالى عرضت أم صابرين على زوجها عبد المتجلى أن يتولى وحده مسؤولية أعمالها التجارية كلها، مسترشداً بتجربتها وخبرتها الناجحة، على أن تتفرغ هى للبيت ولتربية أولادها، وما عليها إلا أن توضح له خطوط الاتصال، والشخصيات التى لها علاقة بهم، وله أن يفرض أسلوبه الخاص وشخصيته على أدائه التجارية دون إفراط أو تفريط، و ستظل هى- فى بيتها- كمستشار خاص له عند اللزوم، وقد تعجب عبد المتجلى لهذا الأمر، فقد سبق لها أن رفضت عرضًا قريبًا من هذا فى الماضى، ثم أنها عملية صعبة أن تختفى هكذا دفعة واحدة عن الأضواء والسلطة، إذ لاشك أنها ستعانى من فراغ قاتل، بالإضافة إلى أن أم صابرين تعلم تمام العلم أن لعبد المتجلى بعض القيم والأفكار التى لا تروق لها؛ لأنها لا تتناسب معه أساليب التجارة الحديثة وما يشوبها من تصرفات وممارسات يرفضها بشدة.

تقول أم صابرين:

- «إنى أعرف متى أتقدم ومتى أنسحب».

- «ولم الانحساب الآن، وأنا لم أعد معترضًا على تصرفاتك».

- «وهذا هو السبب الرئيسى الذى جعلنى أسلمك الأمانة.. لا تنس أننى امرأة أولاً وأخيراً».

- «أعلم، لكن النجاح والموهبة لا يتعلق بالأنوثة أو الذكورة».

- «صحيح، لكنها رغبتى.. أشعر بنداء داخلى يدعونى لذلك، وأنا أثق بك، ثم إن الأمر سيتم تدريجيًا».

كان الأمر مباغتًا بالنسبة لعبد المتجلى، وكان يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتفكير، واستأذن الوردانى ربيع وقال إن حضرة العمدة يطلب مقابلة الست، فقالت أم صابرين بحزم لعبد المتجلى:

- «اذهب إليه وتصرف معه».

●●●



جاءت الأمور على غير ما توقع عبد المتجلى، كان فى البداية يشعر بالرهبة وهو يخوض مجال التجارة وحده لأول مرة، حتى لكأنه يقتحم غابة ممتلئة بالوحوش والأسرار والغموض، لا يأمن الضارب فى أعماقها على نفسه من المخاطر، وبدا له أن أم صابرين امرأة فذة غير عادية حينما استطاعت أن تفرض نفسها فى هذا العالم المخيف، وأن تخضعه ليسطرتها، من أى معدن خلقت هذه المرأة العجيبة.

لكن عبد المتجلى وجد حركة العمل تسير فى انسيابية وانضباط، فكل رجل فى موضعه يعرف جيدًا عمله، والواجبات أو المسؤوليات المنوطة به، لقد وضعت أم صابرين الأسس والقواعد لمسيرتها الظافرة، وطبقتها بذكاء، فتحقق لأجهزتها النجاح، وتدفقت الأرباح، حتى بدا أن كل شىء يمضى آليًا، وكأنه ليس فى حاجة إلى إدارة ومهارات خارقة، فها هى المخازن تمتلئ ثم تفرغ، وها هم العملاء يأتون وينهون معاملاتهم بهدوء دون مساومات

تذكر، حتى الذين عليهم أقساط يؤدونها فى وقتها، والمرتبات والحوافز يتسلمها العاملون دون ضجيج أو مشاغبات، ثم الأجهزة الخفية التى تحرس أمن العمل وسلامته، وتحميه من الحاقدين والمنافسين تسير كما رسمت أم صابرين، وتفتح عيونها جيدًا على ما يجرى، ولديها حاسة حادة لما قد يدبر أو يثار من عقبات أو فتن أو مؤامرات، والعلاقة مع السلطات المهيمنة فى البلد ليس فيها ما يكدر، لكن لوحظ أن العمدة إبراهيم صوان شعر بشىء من الضيق بله الغضب المكبوت حينما تولى عبد المتجلى الأمر، بل إنه عاتب أم صابرين فى ذلك، مشيرًا إلى أن عبد المتجلى ليس بالشخصية التجارية التى يمكن الاعتماد عليها، كما أن تاريخه الطويل يدل على اندفاعه وتهوره وتقلب مزاجه وعواطفه، مع أن رجل الأعمال يجب أن يكون بارد الأعصاب، فى مأمن عن التقلبات العاطفية لكن أم صابرين طمأنت العمدة، وأكدت له أن عبد المتجلى قد تغير كثيرًا، وأن التجارب أنضجته، واستوعب ما مر به من دروس، حتى أصبح إنسانًا جديدًا تمامًا، وأضافت إلى ذلك أنها تفتح عينيها جيدًا، وتراقب تصرفاته، وتعلم مسبقًا ما هو مقدم عليه، وتعاهدت مع العمدة على أن يؤازره ويقف إلى جواره، ويتخذه صديقًا مخلصًا، حتى يتحقق النفع للجميع.

وخلال فترة وجيزة تعرف عبد المتجلى على عدد لا بأس به من رجال الأعمال فى المركز وفى مدينة طنطا عاصمة المحافظات،

وأخذت العلاقات تنمو بينه وبينهم بصورة سريعة مضطردة، ولقد وجد أنماطًا من البشر تجمعهم صفات، وتفرق بينهم صفات أخرى، وعلى أى إنسان يعاشرهم أن يعتصم بالذكاء والمرونة والحكمة إذا أراد استمرارًا لنشاطه.

لم يشعر عبد المتجلى بشىء يذكر من القلق، حينما دعاه بعض رجال الأعمال للقاء عمل فى طنطا، لقد صدرت لوائح وقوانين جديدة بخصوص الاستيراد والتصدير، وبخصوص العملة الصعبة والدعم والتسعيرة وارتفاع الأسعار وشركات الاستثمار، وأصبح من الضرورى أن يلتقى رجال الأعمال من وقت إلى آخر فى الأقليم، بل فى القاهرة نفسها والإسكندرية حتى يتابعوا عن كثب ما يجرى، ويتخذوا الإجراءات الضرورية لحماية مصالحهم، والتفاهم مع المسؤولين حول كل ما يستجد.

كان اللقاء فى أحد القصور الرائعة، سمع عبد المتجلى أحد الحاضرين يقول: «لقد تكلف هذا القصر أربعة ملايين جنيه» أصابه الرقم بالذهول، ولم يكد يفيق حتى سمع آخر:

«الأثاث والتحف التى وضعت فى القصر تفوق المليونين»، كان على وشك أن يستغرقه التفكير حول هذه الأرقام المذهلة، لكن شد انتباهه اندفاع راقصة جميلة كالسهم الذهبى وسط المدعوين، وضجت قاعة الاجتماع بالغناء والموسيقى الصاخبة حتى كاد رأسه

أن يتصدع، وترادفت الزجاجات القائمة والكؤوس وما لذ وطاب من الطعام ديوك رومى، حمام محشو، خراف كاملة مشهيات «يا إلهى.. إن أم صابرين لم تشر إلى شىء من هذا قبل ذلك، ترى هل كانت تحضر مثل هذه اللقاءات؟؟ وما معنى هذا البذخ والفجر؟؟ وكيف يقبل أن يبقى فى هذا المكان بعدما رأى؟» لكنه يجب أن يكون حكيمًا صبورًا وينتظر، فالاندفاع فى اتخاذ قرارات سريعة قد يؤذى..

سمع كلامًا كثيرًا حول الوضع الاقتصادى، أدرك أن بين الحاضرين بعض أساتذة الجامعة والشخصيات المهمة فى المحافظة والوزرات، فهم أن للتجارة فى البلد إمبراطوربة سرية تعمل فى دقة ونظام ويقظة، التجار ليسوا وحدهم فى الساحة، التفاهم سائد بين كل الجهات المعنية، إن الأمور تنكشف له بصورة تذهله.. «يا أم صابرين لماذا قذفت بى فى هذا العالم المخيف؟ أنا رجل بسيط متواضع الآمال، يحلم بالحرية، وأرانى اليوم يا أم صابرين أكبل نفسى بقيود ذهبية، وتقاليد غريبة، والتزامات بشعة، لا نجاة منها ولا فرار، هذا المحفل أشبه ما يكون بمحفل الشياطين.. إبليس يجلس فى الصدارة، ونحن نصلى بتعاويذة السحرية.. أننى أكاد أرى ألسنة اللهب تنبثق من الزجاجات والعيون والأفواه وبريق المجوهرات التى تلبسها النساء والراقصة والثريات المعلقة، حتى ظلال الإثم تتراقص فوق الحيطان الملساء».

أصبح عبد المتجلى فى ورطة، فهو يريد أن ينصرف، ولكنه لا يعرف كيف يفلت من هذا السجن، لماذا لا يفعل كالتلميذ الصغير الذى يتسأذن فى الذهاب إلى دورة المياه، ثم يفر هاربًا «لا . . لست طفلاً يا عبد المتجلى، يجب أن تصمد حتى النهاية لترى ما يجرى، لا بد أن تعرف الحقيقة مهما كلفتك من ثمن . . لكن كيف يا ربى أرضى البقاء فى مجلس للخمر والرقص الداعر، وهوس النزوات؟ لو رآنى شيخ الخلوة فى السيدة زينب وأنا على هذا الوضع المثير لقال : لقد سقطت فى المستنقع الآسن يا ابن رمانة . . لا تتحدث بعد اليوم عن الشرف والفضيلة والرحمة والطهارة لأنك ملعون ملعون . . » .

كاد عبد المتجلى أن يبكى لكنه تماسك، المحفل كله ينصرف بكل ثقة، إنهم يشربون ويأكلون ويضحكون دون عقد أو خوف، لكنه لا يجد أدنى شهية لديه . . فاللحوم - كما بدت له - لحوم ميتة، والكؤوس مسمومة، وغضب الله ينشر جناحين سوداوين على القاعة لا يراهما إلا هو، إذا بقى أكثر من ذلك فسوف يجن أو ينفجر . . دارت الرؤوس، أخذوا يصفقون للراقصة ويشاركونها الغناء برغم عدم جمال صوتها وأصواتهم . . انتهز الفرصة، تسلل هاربًا . . قابله بعض حراس القصر، أوقفوه متسائلين عن سر انصرافه مبكرًا، تعلل بالمرض المفاجئ، «مغص كلوى رهيب يعاودنى من وقت لآخر»، أفهموه أنهم يستطيعون على الفور استدعاء أمهر الأطباء، شكرهم وأكد لهم أن له طبيبه الخاص .

كان العرق يتقاطر على جبينه، ركب السيارة، وهتف بالسائق:

- «إلى كفر أبو السالم مباشرة».

وكان يلهث وهو جالس على المقعد الخلفى للسيارة، اختلطت فى رأسه الصور والمشاهد، كان عجيبًا أن يرى بعض الفلاحين الأثرياء ممن لهم صلة بالعمل التجارى يجلسون فى المحفل، ويقلدون كبار الموظفين فى الأكل بالشوكة والسكين، وشرب الخمر والتصفيق والضحك والغناء، ومداعبة الراقصة.. ترى أين أرى مثل هذه الأشياء؟؟ نعم فى روايت السينما والتليفزيون.. كان يظن أنها وهم لا وجود له، وأنها لا ترى فى واقع الحياة بل فى المسلسلات والأفلام فقط، لكنه رأى الليلة ما هو أبشع.

دخل منزله قبيل الفجر، والكابوس يلازمه، استيقظت أم صابرين، فوجدته فى أسوأ حال:

- «لماذا فعلت بى ذلك يا أم صابرين».

- «ماذا جرى يا عبد المتجلى؟».

شرح لها أحداث الليلة وهو ينتفض من الحسرة والغضب، كان الانفعال يهزه هزًا عنيفًا، وهى صامتة لم تتكلم، ثم صرخ فيها:

- «ألم ترى شيئًا كهذا من قبل؟».

- «كنت أعتذر، وأرسل مندوبًا فأنا المفروض امرأة ريفية».

- «وأنا؟؟ هل وصلت بى الحال لهذا الحد من الحقارة؟؟ أنا أيضًا ريفى مسلم . . » .

- «كنت تستطيع أن ترفض . . أعنى تعتذر» .

- «لم أكن أتصور» .

قالت دون اكتراث :

- «لقد رأيت شيئًا جديدًا ، واكتسبت خبرة» .

- «أنا فى غنى عن مثل هذه الخبرات القذرة» .

عادت تقول وبحزم هذه المرة :

- «أنت سيد قرارك . . وقد تصرفت كما يحلو لك» .

ثم استطردت بعد فترة صمت :

- «الطريق إلى القمة . . » .

قاطعها قائلاً :

- «تحوطه البذاءات والقاذورات» .

- «صدقت ، لكنى لم أكن على علم مسبق بما سيجرى» .

قال وهو يجفف عرقه :

- «إذا كانت التجارة على هذا النحو فأنا بريء منها . . لقد تأكد لى أننى رجل لا أصلح لهذا الزمان . . » .

- «لا تهول فى الأمور، يمكنك أن تفعل ما يرضى ضميرك، ثم تترك ما لا يرضيك.. كان هذا شأنى دائمًا.. ثم هل نسيت أنك كنت رجل سياسة؟؟».

قال فى غضب:

- «وهل هذه سياسة؟؟».

ردت بهدوء:

- «نعم.. أكنت تعتقد أن السياسة هى البحث عن الونش المسروق.. والصمود أمام الجلادين فى المعتقل، ودخول الانتخابات؟».

حدق فى وجهها بإمعان وقال:

-«ما هى السياسة إذن؟؟».

- «اقتصاد، ونفوذ، وحرب لها وسائلها الخفية والظاهرة..».

ضرب كفًا بكف:

- «من علمك هذا يا أم صابرين».

- «ما يجرى فى البلد».

- «أنا شخصيًا أقرأ «الأهرام الاقتصادى» لكنى..».

- «لكنك تعيش فى عالم من الأوراق والكلمات».

وقبل أن يرد عليها قالت وهى تتثاءب :

- «اذهب واغتسل، ثم صل الفجر، وتعال لننام ولا تزعج الأطفال النائمين.. النهار له عيون..».

فى صحف اليوم التالى قرأ عبد المتجلى أخبارًا مثيرة كلها لا يبشر بخير، قوات الأمن المركزى فى القاهرة تحرق وتدمر خاصة شارع الهرم، والجيش ينزل لإخماد الفتنة، وامرأة ذبحت زوجها وقطعت جثته ووضعتها فى أكياس بلاستيكية صغيرة، أربعة من العاطلين ينتزعون فتاة عذراء من خطيبها، ويتناوبون انتهاك عرضها، شاب يقتل جده العجوز الذى رباه، ويأخذ منه سبعين جنيهًا ليشترى بها حذاء لخطيبته، القبض على ممثلة تتعاطى الهرويين، عصابة لتزييف الدولارات، الشرطة تقتل ثلاثة من المتطرفين الإسلاميين بحجة أنهم أطلقوا النار على رجال الأمن المحاصرين لأحد المساجد، انهيار مدرسة حكومية تم إنشاؤها منذ ثلاثة أشهر، تزوير الانتخابات فى دائرة «الرومية» وفوز مرشح الحكومة، القبض على مشعوذ دجال يزعم شفاء جميع الأمراض، ويعالج النساء العقيمات «بالصوفة»، إحالة عميد إحدى الكليات للمحاكمة التأديبية لتغير نتيجة إحدى الطالبات.. القبض على المليونير الهارب فى الأرجنتين، حريق فى مخازن شركة «أبولو ٩٩» قبل الجرد السنوى بيومين، صندوق النقد الدولى يرفض التنازل عن شروطه بإلغاء الدعم على عدد من السلع،

إسرائيل تقتل خمسة أطفال فلسطينيين وتصيب عشرين بجراح، وتطرد ثلاثة من زعماء المقاومة خارج الأرض المحتلة، القبض على ملكة المخدرات، وقوع عصابة الإتجار بالدولار فى السوق السوداء ومصادرة مبالغ كبيرة، معركة فى إمبابة يسقط فيها خمسة قتلى بسبب مشاجرة أطفال حول لعب الكرة . .

قال عبد المتجلى لأم صابرين :

- «أشعر بصداع رهيب» .

- «خذ قرصين من الإسبرين وكوبًا من الشاى» .

- «قلق رهيب . . أريد أن أنام . . أن أهرب» .

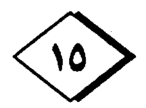
- «لدى أقراص منومة ومهدئة للأعصاب، لكن الطبيب حذرنى من خطرها إذ إنها قد تسبب الأدمان . . » .

قال فى ضراعة :

- «هذه المرة فقط وإلا انهرت . . » .

بعد دقائق من تناول الدواء، كان عند المتجلى يغط فى النوم، وكم كانت دهشتها حينما لاحظت أنه يتكلم ويهذى وهو نائم، وأحيانًا يصرخ ويستغيث ويقول عبارات غامضة مبهمة .

تألمت لحاله، شعرت لأول مرة كأنها جنت على هذا المسكين، لكنها لم تكن تدرى ماذا تفعل له .



نظر عبد المتجلى حوله، فوجد كل شىء يوحى بالارتياح والاطمئنان، البيت الجميل الذى بنته زوجه، والأثاث الفاخر الذى تتناسق قطعه وألوانه وطرازه، والخدم يسهرون على راحتهم، ووجد صابرين ومنصور ومندور يدرجون فى جو صحى نظيف، والمراوح الكهربائية ترسل نسيمًا عليلاً يعبث بشعرهم، والفواكه الموسمية الطازجة موضوعة فى أطباقها ذات الأشكال البديعة، والسجاد الفاخر يغطى أرض الغرف الرحبة، والثريات المتألقة تتدلى من السقف، والصور التذكارية له ولأم صابرين والأولاد تشرق بالفرحة بين أطر مذهبة على الحائط النظيف، وتذكر عبد المتجلى أيام الفقر الزاهية، وما فيها من عنت ومشقة، فتمتم فى خشوع «هذا من فضل الله».

لكن هناك قلق داخلى يعنصر فؤاده، ويؤرق نفسه، ذلك القلق عدوه اللدود الذى لم ينصرف عنه طول حياته، سواء فى حالة الشدة أو الرخاء، وفى حالة السخط أو الرضى، وفى حالة النصر

أو الهزيمة، ترى أهو عقدة نفسية مترسخة فى كيانه، متمكنة منه، لا تغادره فى يقظة أو منام؟

لقد رأى فى «الحفل الساهر» الذى شهده، أمارات التفسخ والفساد جهاراً، سمع بأذنيه، ورأى بعينه مجموعة من المتآمرين يستغلون الفرصة للأثراء وتكديس الأموال بشتى الوسائل والحيل، آلمه أشد الألم أن يتصرفوا وكأنهم أصحاب الرأى والأمر، وكأن الشعب رعية ذليلة تدين لهم بالطاعة والولاء، ولا يجرؤ أحد أن يرفعه رأسه ويقول لهم: «هذا ظلم.. هذا حرام»، والكارثة أن ممثلى السلطة يحترمونهم، وييسرون لهم سبيل النهب، ويخرسونهم من الاعتداء أو حتى النقد البرىء، بل إن نسبة كبيرة منهم أعضاء فى المجالس الشعبية والبرلمان والبعض الآخر يحتل مناصب رسمية، إن الأمم -كما يعتقد عبد المتجلى- تضيع إذا لم يكن فيها رقيب ولا حسيب، لماذا لا ينطق صوت الشعب صوت القانون فى قوة ويوجه ذلك السؤال المهم «من أين لك هذا» إن القوانين أصبحت حبراً على ورق، ويأتى قانون ليشل قانوناً سبق، بل إن كان قانون فيه الثغرات ما يبطل الهدف من إصدار القانون أساساً، ، وسار عبد المتجلى فى أروقة غرفة المكتب الأنيق جيئة وذهاباً، ثم كور قبضته اليمنى وأخذ يدق الحائط الأبيض الأملس فى عصبية ويصرخ:

- «من أين لك هذا؟ من أين لك هذا؟ من أين لك هذا؟».

ودخلت أم صابرين فجأة، ولاحظت على الفور ما يعانيه زوجها من انفعال، إنها تعرفه تمام المعرفة، ولن يغيب عنها معنى عبارته: «من أين لك هذا»، كانت لماحة ذكية، فقالت له بهدوء، تحسد عليه:

- «هذا من عرقنا وكفاحنا، نحن نقضى النهار متعبين. وجزءاً كبيراً من الليل فى شقاء حتى نكسب رزقنا».

- «أنا لا أتكلم عنك».

- «الملايين لا تأتى وحدها».

- «لكن الذين رأيتهم بالأمس كانوا مجموعة من اللصوص».

- «إنهم مثلنا».

- «هل نحن إذن لصوص».

- «أنت تعلم ما تفعل، فهل نحن كذلك؟».

- «نحن نختلف عنهم».

هزت كتفيها وقالت:

- «ربما فى بعض الأشياء.. لكن الحرفيين اليوم أصبحوا مليونيرات.. البناؤون، والنقاشون والنجارون وتجار الأراضى والمقاولون وحدهم يرزحون فى إسار الفقر؛ لأنهم يريدون ذلك..».

قال عبد المتجلى فى إصرار:

- «سوف أكتب شكوى رسمية للرئيس».

- «ماذا ستقول فيها يا عبد المتجلى؟؟

- «سأشرح الوضع بأمانة».

- «الصحف تكتب كل يوم ولا يتحرك أحد».

- «وهذه مصيبة أخرى».

- «حتى القضايا التى تقدم للمحاكمة تصدر فيها أحكامًا بالبراءة..».

- «لنقص الأدلة..».

- «أية أدلة يا عبد المتجلى؟؟ أنت نفسك من أين لك هذا، وأنت الموظف الصغير؟».

صمت برهة، قارن بين ما كان، وما هو كائن.. قال ورأسه منكسة:

- «ألم أر فى تصرفاتك يا أم صابرين شبهة».

- «لكنك لا تنكر أننا يمكن أن نؤخذ بقانون من أين لك هذا».

تبين صدق أفكارها نظر إليها شاردًا، استطردت:

- «وسنجد صعوبة كبرى برغم نظافة تصرفاتنا فى إثبات براءتنا، والتدليل على أنه ثراء مشروع.. لا تلعب بالنار يا عبد المتجلى؛ لأنك ستكون أول من تحترق أصابعه..».

هز رأسه، وترنم ببيت من الشعر القديم:

دع المقـــادير تجــرى فــى أعنتـــــهـــا

ولا تبـــيتنّ إلا خــــالى البـــال

قالت وهى تمسح على رأسه وقفاه :

- «أنت تعذب نفسك فيما لا مبرر له» .

- «ضميرى لا ينام» .

قالت فى سعادة :

- «ولهذا قررت أن نغير الجو الذى نعيش فيه» .

قال فى دهشة :

- «كيف؟؟» .

- «سـوف نـذهب إلى الإسكندرية للتـصـيـيف . . لقـد اشـتـريت «شاليه» فى المعمورة جميلاً ظريفًا . . على البحر مباشرة . . » .

طالما حلم بأن يرتمى عليه رمال الشاطئ ، ويترك جسده للشمس والهواء والبحر ، ويسترخ بعيدًا عن هموم الدنيا ، ويأكل الشطائر اللذيذة ، ويشـرب السوائل البادرة ، ويلعب الكرة مع أولاده ، نعم حلم بذلك طويلاً ، لـم تكن لديه المقـدرة على تحـقـيق ذلك الحلم ، كما أنه يستحيى من أن يرى النساء العاريات يخطرن على الشاطئ ، أو يسجن فى الماء ، وتذكر أم صابرين فهتف :

- «وأنت يا أم صابرين، هل ستلبسين «المايوه» كباقى الخليعات في المصيف؟».

صاحت ملوحة بيدها:

- «حاشا لله.. يكفى أن أجلس لحراسة أولادى، وتجهيز مطالبكم، لست من هؤلاء الفاسدات، ماذا يا عبد المتجلى؟ هل نسيت من أكون أنا امرأة تخاف الله، ولن أتخلى عن الحشمة والوقار ولو أوتيت أموال قارون..».

- «وأموالنا يا أم صابرين».

قالت فى ثقة:

- «سوف يمضى كل شىء فى طريقه كما هو مرسوم، وستأتى أنت إليهم كل أسبوع للاطمئنان والمتابعة..»

***

اندمج عبد المتجلى فى ضوضاء المصيف وزحامه، تناسى مشاكل الحياة وهمومها، كان يجلس كل يوم على موائد السمك المشوى اللذيذ، ويأكل الجمبرى بشهية، ويقبل على اللحوم والفواكه كمن حرم طويلاً من خيرات الدنيا، وكان يشارك الأطفال فى أكل «الآيس كريم» والحلوى والشيكولاتة، وكان حريصًا فى الوقت نفسه على تأدية الفرائض.

- «وهل أنت سعيد يا عبد المتجلى؟».

- «كل السعادة!! وأنت؟».

- «الحمد لله يا زوجى، لكن يقلقنى شىء واحدة».

- «ما هو؟؟».

- «نظراتك..».

نظر إليها بإمعان وهو يتمتم فى حيرة:

- «نظراتى؟؟ ماذا فيها؟؟».

- «أيها الثعلب.. تنظر إلى الفتيات الجميلات العاريات..».

- «أنا؟؟».

- «دعك من هذا المكر، أنا أعرفك».

- «أقسم أننى.».

قاطعته قائلة:

- «لا تقسم..».

ووضعت يدها على فمه، ثم أخذا يضحكان من القلب، وهو يحاول جاهدًا أن يبرئ ساحته من الاتهام، فهو رجل يخاف الله، ويخشى عقابه، وأخذ يشرح لها كيف أن النظرة الآثمة سهم من سهام إبليس، فضلاً عن أن جمالها الحلال يشغله عن أى فتنة فى الدنيا، وأنه يضع يده فى معظم الأوقات على صابرين وأخويها

منصور ومندور مخافة أن يجرفهما التيار، فهو ينظر إليها بعين وإلى الأطفال بعين أخرى.

كانت أم صابرين حريصة أشد الحرص على عدم إثارته، وكانت تتفادى الحديث عن الأموال والتجارة، لكنه أدرك فى الحياة الرخية التى يحياها، قد أدخلت إلى قلبه قدرًا كبيرًا من السعادة، وجعلته يستمتع بأمور كثيرة كان محرومًا منها، وحاول جاهدًا أن يهرب من نفسه التى تلح دائمًا فى توجيه الأسئلة المحرجة التى تؤرق عليه راحته، وتبعث فى نفسه القلق الدائم، ذلك القلق يورثه الغم، والنكد، ويحرمه مما يستمتع به من خيرات ونعيم.

وفى أحد الليالى المقمرة، وقد خفت الحركة على الشاطئ، وانبعث هدير موج الليل صاخبًا عاتيًا والريح القوية تندفع داخل «الشاليه» أخذت أم صابرين تحدثه عن مجال جديد للعمل، وهو مجال الاستيراد والتصدير، وشرحت له أهمية توثيق العلاقة مع رجال الميناء والجمارك.. فهناك سلع لا بد من استيرادها من الخارج، لأن شراءها وبيعها فى الداخل يحرمهم من أرباح كبيرة، والاستيراد من الخارج ليس مشكلة ما داموا يملكون العملة الصعبة، لكن رأى عبد المتجلى هو «الاختصار» وعدم توسيع نطاق العمل حتى لا يفقدوا السيطرة، ودار بينهما جدل طويل حول هذا الموضوع، لكن الإغراءات التى لوحت له بها كان أقوى من

اعتراضه، وخاصة عندما أفهمته أن ذلك المجال سوف يفتح أمامه باب السفر إلى الدول الأجنبية، وسيجد هناك الخبرة مع المتعة والمنفعة، وخاصة أنه قد يستطيع الحصو على وكالات تجارية لبعض أنواع السلع المهمة، وذلك سوف يفتح بابًا آخر واسعًا للرزق.

ولم تنس أم صابرين أن تقترح عليه أن يستقيل من وظيفته حتى تتحقق له حرية الحركة، ويجد الوقت الكافى للعمل الحر المفيد، ولكيلا يخضع لمساءلة القوانين وخاصة قانون من أين لك هذا، فهى تتوقع أن يزداد عدد الحاقدين، وأن تكتب ضده الشكاوى الكيدية، وتجره إلى العديد من المتاعب.

وبعد فترة قصيرة من التفكير وجد عبد المتجلى أن ما تقترحه أم صابرين عليه عين الصواب، فسوف يخلصه من قيود كثيرة، ويطلق يده للعمل، كما أن عملية الاستيراد والتصدير برغم ما يصاحبها من متاعب ومشاكل ستكون تجربة جديدة مثيرة، فإذا نجحت كان بها، وإذا لم تنجح فسيكتف بما يمارسونه من نشاط محدود مثمر..

ومضت أيام المصيف جميلة ساحرة، وعادوا إلى كفر أبو سالم بعد أن انقضى الحلم الجميل الذى لم يستغرق سوى ثلاثة أسابيع كانت مليئة بالمتعة والجمال، وقال عبد المتجلى لأم صابرين:

- «لست أدرى كيف عشنا بدون «شاليه» هذه الفترة الطويلة.. لقد تأكدت أن الشاليهات ضرورة من ضرورات الحياة الحقيقية..».



حمل «الوردانى ربيع» أخبارًا لا تسر ، فقد أبلغ أم صابرين أن تجار المنطقة يرفضون أسلوبها وأسلوب زوجها فى التجارة، فهى تتصرف باستقلال وحرية ، ولا ترتبط مع كبار رجال الأعمال بأية عهود ومواثيق، وما زالت دائبة على ضرب أسعارهم فى الأسواق بخفض الأثمان عند التوزيع ، ودفع إتاوات أكبر عند منافذ الشراء ، ثم إنها لا تساهم بنصيب فى نادى رجال الأعمال ، إن النادى ليس منشأة رسمية ، لكنها تعلم أن للنادى رسالة يؤديها نحو تأمين التجارة؛ وذلك برصد ميزانية خاصة لكبار رجال الإدارة وأصحاب النفوذ والتأثير كما أن عبد المتجلى لم يعد حريصًا على حضور الاجتماعات الدورية الخاصة التى يعقدها أبناء المهنة ، وما زال «الادعاء الأخلاقى» يفسر مسيرة العمل التجارى الجماعى ، ذلك الادعاء الذى يحرص عليه عبد المتجلى وزوجه أشد الحرص ، وينشره بين الناس ، ويوجه عبد المتجلى النقد الدائم لأسلوب التجار الجشعين الذين يعتبرون أن هذا المنهج تحديًا لهم ولخطتهم

وتشويهًا لسمعتهم، وإيعاذًا للجماهير للتصدى لهم، والحد من نفوذهم وسلطانهم.

وكـــان من رأى الورداني ربيع -وهو يحلل الموقف- أن ذلك بداية خطر على تجارة أم صابرين، وعلى أمنها الشخصى، فهؤلاء الثعالب سرعان ما يفكرون فى الانتقام، لا يردعهم عن ذلك وازع من ضمير، ولا كابح من خلق، فالتجارة هى التجارة، ولا شيء غير ذلك ولقد أدركت أم صابرين أبعاد الخطر المتربص بهم، ولم تكن بمعزل عما يجرى فى تلك الإمبراطورية الشريرة منذ دخلت عالمها المثير، قالت أم صابرين للوردانى ربيع:

- «وماذا تتوقع يا وردانى؟».

- «أنت تعرفين أكثر منى».

- «هل سيقتلوننا؟».

- «جائز جدًا.. لكن هذا آخر ما يفكرون فيه».

- «ما الاحتمالات فى رأيك؟».

- «مثلما سبق.. إنذارات كالحريق السابق.. ثم تدمير بعض المشاريع.. أو تلفيق التهم لك أو لعبد المتجلى بك.. أو إغراء الضرائب بكما.. إنهم ذوو حيل، وحيلهم لا تنفد..».

هزت رأسها قائلة:

- «معقول..».

- «إنهم يا «معلمة» لا يخافون الله . . » .

- «ألا يمكنك أن تكتشف بعض آلاعيبهم قبل وقوعها؟» .

قال وهو يهز رأسه مفكراً :

-«بصراحة ليس دائمًا . . ثم إنهم لم يعودوا يثقون بى» .

كشفت بعض أوراقها عامدة وقالت :

- «إن لنا رجالاً غيرك بينهم» .

- «هذا لا يكفى» .

- «لماذا؟» .

- «لأن لكل رجل -كما تعلمين يا ست الكل- ثمن» .

هزت رأسها قائلة :

- «أعرف ، كلهم عبيد» .

- «ويأخذون منك ، ويأخذون منهم» .

- «باعوا أنفسهم للشيطان» .

- «تلك قضية مؤكدة يا ست الكل . . » .

- «وعبد المتجلى رجل طيب ، وأنا أخاف عليه أشد الخوف» .

قال الوردانى ربيع بحماسة :

- «هذا ما أردت قوله بالضبط» .

- «إذن سأضطر للخروج إليهم» .

- «عين الصواب . . » .

- «لقد فُرضت علينا الحرب يا وردانى ونحن لا نريدها» .

هرش الوردانى قفاه ، وقال :

- «هناك حل وسط . . أقصد مصالحة» .

- «كيف يا وردانى؟؟ إننى أثق بك» .

- «نلبى لهم رغباتهم . . » .

- «أليس ذلك هو الهزيمة والاستسلام» .

- «لماذا تسميه كذلك؟» .

- «لأنها الحقيقة يا وردانى» .

- «بل قولى سياسة حكيمة» .

- «إلى متى يا وردانى» .

- «حتى نتحكم ونتمكن» .

- «سنظل فى قبضتهم طول العمر ، وستزداد مطالبهم» .

قال الوردانى فى دهاء :

- «إنها قواعد اللعبة إذا أردنا المشاركة فيها» .

صمتت برهة ، والغضب يأخذ منها كل مأخذ ، ثم قالت :

- «ما رأيك فى ضرب الرأس المدبرة» .

التفت إليها فى دهشة وقال :

- «ما عهدتك هكذا».

قالت وهى باسمة:

- «مجرد افتراض..».

خفض بصره إلى الأرض وقال:

- «ليست رأسًا واحدة.. إنها رؤوس كثيرة تدبر.. أغلبها يا ست الكل صلعاء مجدبة».

ضحكت أم صابرين كانت رأسها منهكة من شدة التفكير وحرارته، ولم تنكر أن الخوف قد أخذ يداخل قلبها، وكانت مؤمنة أعمق الإيمان بأنها يجب أن تكون على حذر بالغ، وأن تدعم مواقعها بالقوة القادرة على الصد والرد، لأن أى ثغرة فى الصفوف سوف يتسلل إليها ثعابين لا ترحم، وهمت أم صابرين ب :تصرف الوردانى ربيع إلى عمله، لكنها سمعته يقول:

- «هناك أمر آخر خطير.».

تنبهت حواسها وقالت:

- «لا تُخف عنى شيئًا يا وردانى.. أنت موضع ثقتى واحترامى، ولن أضن عليك بمال، إنك أخلص رجالى لى..».

- «يعلم الله أنى مستعد للتضحية بحياتى من أجلك..».

- «ماذا هناك إذن..».

تلفت يمنة ويسرة وقال بصوت هامس راعش:

- «عبد المتحلى بك ارتكب حماقة كبرى».

تضايقت من ألفاظه الجارحة، وقالت:

- «تأدب يا ورداني».

- «يا ست الكل، ما كان يجب أن يفعل ما فعل».

- «قل بسرعة ماذا جرى».

- «كتب شكوى إلى الرئاسة، تناول بالتفصيل منها نشاطات التجار بالمنطقة، وذكر بعض الأسماء وبعض الوقائع المحددة..».

- «مستحيل».

- «هذا ما حدث بالضبط، وأستطيع أن أحضر لك صورة من هذه الشكوى المحزنة».

- «وماذا جرى بعد ذلك؟».

تنهد في أسى، وقال:

- «تعرفين أن لهم رجالاً يحمونهم في كل مكان، والشكوى لم تصل إلى الشخصية المقصودة، وسحبت في آخر لحظة.. ورأيي أن البك قد ارتكب خطأ فاحشًا، دون أن يحقق أى نفع من وراء تصرفه الغريب هذا..».

لم ترد أن تصدق ما يقول الورداني؛ لأنه إن صح ما قال فمعنى ذلك أن عبد المتجلى قد أتى تصرفًا صبيانيًا ساذجًا لكنه مدمر، بل

قاتل، وكادت تبكى من شدة الغضب والغيظ، وأمرت الوردانى بالانصراف على أن تتولى الأمر بنفسها، وعندما همّ بالخروج، أسرعت وأحضرت له رزمة من الأوراق المالية مكافأة له على إخلاصه، وعلى المعلومات الثمينة التى قدمها إليها.

وأخذت تنتظر مجىء عبد المتجلى على أحر من الجمر، كيف يفعل ذلك، وكيف يوقع العريضة باسمه؟ ولماذا يزج بنفسه هذا المأزق الخطر الذى يصعب الخروج منه ثم إنه واحد مثلهم مهما كان الأمر، ومن فى رأسه جرح لا يصح أن يرمى الناس بالأحجار، فضلاً عن أن عبد المتجلى لا يستطيع أن يقدم الأدلة الدامغة، كما أنه لا يمكن أن يكون عاقلاً من يستعدى هذا العدد من الرجال الأقوياء، بل من المحتمل أن يصبح هو فى موقف المتهم، ويطلبون منه الدفاع عن نفسه، وسوف يتهم بإزعاج السلطات، والمشكو فى حقهم سوف يرفعون ضده قضية «رد شرف»؛ لأن المفروض أن كلهم شرفاء وذوو حثيثة، بهل أصيب عبد المتحلى بلوثة؟ هل عادت إليه أوهام «الونش المسروق» القديم؟ ألم تحذره من مثل هذه التصرفات الطائشة التى لا جدوى منها؟ ولماذا لم يخبرها بما فعل؟ إنه بذلك يكشف أوراقه دفعة واحدة، ويعطيهم الحجة والفرصة للنيل منه، وتمتمت: «ذلك بصراحة عبث أطفال، وعبد المتجلى لن يكون بذلك رجل أعمال ناجح طول حياته مهما فعل».

جاء عبد المتجلى آخر الليل منهمكًا مكدودًا، وبرغم ذلك فقد كان يشكو من قلة حصيلة اليوم، والعقبات الكثيرة التى اعترضت طريقه هذه المرة لسبب لا يعرفه، والعيون الفضولية التى كانت ترمقه فى حذر، وتحاصره كلما تحرك.

قالت له بهدوء تحسد عليه:

- «عبد المتجلى».

- «أنت رجل أحمق..».

انتفض كمن لدغته عقرب وهتف:

- «هل جننت يا أم صابرين؟».

- «المجنون أنت..».

- «تأدبى يا امرأة وإلا حطمت رأسك بكعب حذائى».

نظرت إليه فى سخرية وحنق:

- «إنك تجلب على نفسك الموت، وتدمر ما بنيناه طوال السنين الماضية فى لحظات قصار..».

- «افصحى، فقد فاض الكيل».

- «كيف حدثتك نفسك بكتابة شكوى وبتوقيعك إلى رئاسة الجمهورية».

قال فى فرح صبيانى:

- «هل استدعونى للإدلاء بأقوالى؟ هذا ما كنت أتوقعه إن

كلماتى لن تطير فى الهواء، وسيكون لها دائمًا صداها المؤثر ليعرفوا من يكون عبد المتجلى صاحب المبادئ والغيرة الوطنية . . ».

شملته بنظرة امتعاض وقالت :

- «لم يحدث شىء من هذا . . »

- «ماذا جرى؟؟».

- «لم تصل الشكوى، وإنما سلمت للمشكو فى حقهم».

- «مستحيل . . هذه فوضى».

- «لم ولن تتعلم . . قلت لك لا تفعل».

- «إنى أفعل ما أؤمن به».

- «وما جدواه؟».

- «يكفى أننى أرضى ضميرى يا امرأة».

قالت بصوت راعش :

- «لكنهم يدبرون لقتلك، ومن الخطر أن تخرج إلى الشارع بعد اليوم، على الأقل لفترة قد تطول».

ضرب كفًا بكف وقال :

- «إذن فهم الذين يحكمون».

-«لقد فهمت أخيراً . . ».

- «قلت لك ألف مرة: دع الخلق للخالق، وافعل أنت ما يرضى ضميرك، دون أن تتعرض للآخرين. . »

قال كممثل فوق خشبة المسرح:

- «يا إلهى. . هذه حياة لا معنى لها. . ».

- «لأنك دائمًا تعيش فى الأحلام».

- «بل أنا على حق».

نظرت إليه بطرف عينيها قائلة:

- «أتدرى كم سيكلفنا الخروج من هذا المأزق؟؟».

- «كم؟؟».

- «نصف ثروتنا».

- «ماذا تقولين؟».

- «إننى أعرف جيدًا ما أقول، إن أوهامك الطائرة ستجعلنا نعود كما كنا بالأمس حفاة جياعًا عراة، بل ربما تقضى علينا وعلى أولادنا. . ».

- «إذن سيظل هذا البلد فى بؤس وذل إلى الأبد».

- «لا تتحدث عن البلد، تحدث عن نفسك أيها المخدوع. . كل إنسان يحمل مصيره على كتفيه ويمضى. . البلد بها حكامها وحراسها وميزانيتها، أما نحن فليس لنا أحد إلا الله، وعلينا أن

نسعى ونكدح بعقل واتزان من أجل أولادنا . . فهل فهمت يا عبد الميتجلى . . يا رجل القانون ! ! » .

هز رأسه دو أن يجيب ، فاستطردت :

- «قلت لك عش حياة الناس ، وادخل السباق لا بساقيك وحدهما ، ولكن بعقلك أيضًا . . الناس يصفقون لمن يفوز ، ويقدمون له الجوائز وباقات الزهور . . ويضعون صوره فى الصحف والتليفزيون ، والذين يسقطون لا يلتفت إليهم أحد . . وأنت علمتنى أن اليد العليا خير من اليد السلفى» .

قال عبد المتجلى فى حزن :

- «ليس هذا زمانى» .

ردت بعنف :

- «ولا مكانك» .

قال فى دهشة :

- «ما معن ذلك؟ هل تطرديتنى من بيتى أم أنت التى ستطلقيننى هذه المرة؟» .

قالت وهى تجفف عرقها :

- «لم أقصد شيئًا من ذلك ، ولكنى أقترح عليك أن تسحب استقالتك ، وتعود إلى عملك فى مجلس القرية ، فقد قررت أن

أعود إلى إدارة الأعمال بنفسى، وعاهدنى ألا تتدخل فى شأنى مرة أخرى . . ».

تمتم فى أسى :

- «هذا أفضل ألف مرة».

- «سأكون دائمًا زوجك المحبة الوفية . . ».

- «هذا ما أتمناه».

- «ولن أتخلى عن رعاية أبنائنا ».

- «الحمد لله . . ».

- «وستجدنى دائمًا طوع أمرك إذا طلبتنى ».

- «وسأتصدى لانحرافات التجار وتهديداتهم بأسلوب الخاص، وأعدك بألا أدخل معهم مواطن الأثم والشبهات . . ».

- «قد يصعب تنفيذ ذلك . . »

- «لا . . لا إنهم لا يريدون سوى أن يأمنوا على تجارتهم وأرباحهم وسأجعلهم يطمئنون من هذه الناحية . . ».

ألقى برأسه الملتهب على الوسادة إلى جوارها وقال :

- «إننى فى حاجة ماسة إلى قرص منوم».

- «لا بأس على أن يكون آخر الأقراص».

- «أعدك» . . .



قال الناس فى «كفر أبو سالم» إن أم صابرين قد فصلت زوجها عبد المتجلي، واعتمدت إنهاء خدماته، وتساءل الساخرون: هل أنهيت خدماته كلها؟ ورد آخرون: بقيت مهامه كزوج ورب أسرة يرعى الأطفال، ويطعمهم وينيمهم، لقد انحدر من قائم عام إلى «عسكرى مراسلة»، وهذا ألعن ما يبتلى به الرجال ذوو النخوة، وغمغم أحدهم «إن كان هناك نخوة»، لم تلتفت أم صابرين إلى ما يقال من تعليقات، وإنما انصرفت إلى أعمالها، تعدل من أوضاعها، وترتب من خطواتها، وتعيد العلاقات إلى طبيعتها، أما عبد المتجلى فقد شعر بالأحزان تسحق قلبه، حقيقة لم يكن راضيًا عن العمل وما يشوبه من سلبيات ومخاز، لكنه لم يكن يريد أن تنحسر عنه الأضواء هكذا دفعة واحدة، فيظهر بمظهر الذى عوقب أشد عقوبة، إن ما حدث يعتبر على أى صورة من الصور جرحًا لكرامته وكبريائه كرجل، لكنه كان يعرف أيضًا أن أم صابرين

حاسمة فى المواقف المصيرية، ولا تتوان عن اتخاذ الإجراءات الواجبة فى الوقت المناسب، عندما تتهدد العمل أخطار كبيرة، أما ما بينها وبين زوجها فهى أمور عائلية فى آخر الأمر يمكن تسويتها بطريقة أو بأخرى.

كان رأى شيخ المسجد:

- «لقد أحسنت أم صابرين صنعًا حينما أخرجتك من هذا العالم الملوث، ويجب أن تحمد الله على ذلك».

أما الحاج التاجر الصديق فقد علق قائلاً:

- «أنت يا عبد المتجلى لم تخلق لعمل لهذا».

وظل عبد المتجلى فى معزل عن تعليقاتهما، فقد كان يفكر فى شىء آخر، فإذا كان هناك اختلاف كبير بين شخصيته وشخصية أم صابرين، كما أن اتجاه كل منهما الفكرى متباعد عن الآخر، فكيف جمعهما القدر تحت سقف واحد؟ وما تفسر ذلك الحب الوطيد الذى يربط بين قلبيهما منذ أن التقيا وحتى اليوم؟ هل هو حقيقة أم وهم؟؟ هل هو وليد المصالح المشتركة، أم العواطف الملتهبة؟ حسنًا.. لتنداح هذا الأسئلة فى رأسه كما انداحت آلاف الأسئلة قبلها، وليذهب إلى عمله الحكومى القديم دون حرج بعد أن سحب استقالته، فالحقيقة التي يؤمن بها عبد المتجلى أن ما بينه وبين أم

صابرين من خلاف إنما يتناول الفلسفة التى يتبعها كل منهما ، وهذه مشكلة قديمة يعرفها الجميع قبل الطلاق وبعد الصلح ، ولم تدخر أم صابرين وسعًا فى اتخاذ منهج وسط حينما فوضت عبد المتجلى بأن يتولى جميع الأعمال ، ولم تتراجع إلا عندما وجدت أن السفينة توشك أن تغرقها الأمواج العاتية ، والرياح العاصفة ، ولو تراخت لحدثت لها ولتجارتها نكسة أبشع من نكسة يونيو ١٩٦٧ ، لقد كانت أم صابرين تعتقد أنها أشجع من صناع القرار أيام تلك الهزيمة ، إذ أصدرت أوامرها باتخاذ خطوات إيجابية قبل أن يضيع كل شىء ، وهل كان لديها إجراء بديل يصلح لاستدراك النكبة التى أوشكت أن تلحق بتجارتها ومستقبلها؟ ومع ذلك فهي تعتقد أ نها لم تبع نفسها للشيطان ، ولم تتخل تمامًا عن القيم العريقة الأساسية التى يفكر فيها زوجها ، وغدًا ينسى الناس كل ما جرى أمام الصفقات الناجحة التى تتوالى يومًا بعد يوم .

قالت له بعد هذه الأحداث بأيام قليلة :

- «تعلم يا عبد المتجلى أن أى إنسان لا يأمن على أمواله فى بلدنا الذي يخضع للكثير من التقلبات والقوانين . . » .

- «أعرف» .

- «ولذلك لا بد أن نعمل حساب الزمن» .

ابتسم فى ذكاء وكأنه يقرأ سطورًا ما كمن فى رأسها ، وقال :

- «تريدين فتح حساب فى أحد البنوك الأجنبية فى الخارج باسمك».

وخاب ظنه حينما سمعها تقول :

- «لا . . إن ما أقصده غير ذلك . .».

- «إذن تريدين أن تكتبى بعض الأموال والممتلكات كهبة باسم الأطفال».

قالت فى ضيق :

- «إننى لا أثق إلا بما فى يدى».

- «كيف؟».

- «لقد أعددت مخبأ هنا فى البيت لا يستدل عليه الجن الأحمر، وسأضع فيه كمية من المجوهرات، والعملة الصعبة- دولارات بالذات- ومبلغًا كبيرًا بالجنيه المصرى على الرغم من عدم الثقة به، ولسوف أدلك على هذا المخبأ على أن يظل سرًا بيننا وأن نقسم على ذلك . .».

ارتاح عبد المتجلى لهذه الفكرة، إن أم صابرين لا يفوتها شىء، فضلاً عن أن إعلانها عن هذا السر يعنى الثقة المطلقة به، ويؤكد ما بينهما من روابط وثيقة لا تنفصم أمام الأحداث على طول الزمن، ومع ذلك فقد ضحك عبد المتجلى وقال :

- «وماذا يفعل أبناؤنا إذا وقع لى ولك حادث مفاجئ أودى والعياذ بالله بحياتنا؟؟» .

صمتت ، وعيناها تدوران فى محجريهما بسرعة لافتة للنظر .

- «استبعد أن يحدث ذلك» .

- «ولو واحد فى المليون؟» .

- «أوه يا عبد المتجلى ، لماذا تفسد على فرحتى؟» .

- «لأنى أعرف أنك لا تتركين شيئًا للمصادفة . . » .

شعرت بصداع شديد ، بدا القلق واضحًا على وجهها الجميل ، قالت متهربة من السؤال الصعب :

- «هل تعلم أن ضغط الدم العالى قد أصابنى أنا الأخرى بصورة تهدد حياتى» .

ورد فى مرارة :

- «ضريبة المجد يا أم صابرين» .

وبعد فترة وجيزة من الصمت قال :

- «أما أنا فقد انخفض ضغطي إلى الحدود الطبيعية دون علاج أو نظام غذائى» .

ردت فى توتر :

- «هذا يسعدنى . . إنك تنام بلا هموم تذكر . . ولم تعد فى حاجة إلى الأقراص المهدئة ، أما أنا فإن المهدئات قد أصبحت جزءاً من علاج الضغط اليومى لتخفيف التوتر . . وإذا استمر الحال على هذا الوضع ، فإن عمرى سيكون قصيراً . . » .

اقترب منها ، وضمها إلى صدره فى حنان وحب حقيقى وقال :

- «عشت لى إلى الأبد ، أنا بدونك لا أساوى شيئًا» .

ثم همس فى أذنها :

- «ولقد وجدت حلاً للمخبأ . . سوف نضع الأمر أمانة فى عنق شيخ المسجد كى يتصرف إذا حدث لنا حادث لا قدر الله . . وأنا أثق به . . » .

قالت فى ارتياح :

- «إنه رجل طيب يخشى الله ، ولم يره أحد على معصية قط طوال حياته بيننا» .

ونشر الاطمئنان جناحيه على البيت الصغير ، هدأت موجات الصداع فى رأسها ، وقل معدل تنفسها ، كما انخفضت نبضات قلبها المتسارع ، تمتمت :

- «إن حياتنا رائعة . . لكننا نخاف المجهول» .

قال لها وهو يلامسها فى حنان :

- «لو ترسخ الإيمان فى قلوبنا لما شعرنا بأدنى قلق أو خوف» .

- «إننى مؤمنة ، لكننى قلقة» .

- «الإيمان والقلق لا يجتمعان يا حبيبتى» .

- «كيف؟؟» .

- «ألا تعتقدين أن المستقبل بيد الله» .

- «بلى» .

- «ففيم الخوف إذن؟؟» .

- «أتساءل : هل نحن على حق؟» .

قال لها :

- «استفت قلبك» .

- «قلبى حائر . .» .

- «اضرعى إلى خالقك» .

- «وأنت يا عبد المتجلى؟» .

- «أنا مثلك تمامًا» .

- «إنك تعزينى حتى لا تزداد أحزانى» .

- «الحقيقة أننى لا أفكر كثيرًا فى المستقبل مثلك».

- «وكيف استطعت أن تفعل ذلك؟».

- «لأن طموحى ليس متعلقًا بالمال تمامًا».

- «وهل المال دائمًا مدخل للشفاء؟».

- «الحكماء والمؤلفون فى السينما والمسرح والروايات يقولون ذلك، لكن الناس دائمًا وأبدًا يجرون جرى الوحوش».

- «هكذا أراد الله يا عبد المتجلى».

- «إرادة الله فوق كل إرادة.. لكننا محاسبون بقدر ما نمارس من الحرية التى وهبها الله لنا.. ولهذا قال مجنون ليلى:

تعالى نعش يا ليل فى ظل ربوة

من البيد لم تنقل بها قدمان

إنه يحلم بحياة الفطرة والطبيعة، بعيدًا عن الخلق والعاذلين ومطامع الحياة «إن البُهْم ترتعى، وإذ نحن خلف البهم مستتران».

ضحكت أم صابرين وقالت:

- «يبدو أنه كان مجنونًا بحق، فكيف يرضى أن يعيش فى الصحراء، مع البهائم معزولاً عن الدنيا.. أى حب هذا؟ لا طعم للحب إذا لم يكن بين الناس حتى لو شقينا بحماقاتهم وأحقادهم».

ثم التفتت إليه قائلاً :

- «أتؤمن يا عبد المتجلى بما يقوله مجنون ليلى» .

- «نعم، لأنى مجنون مثله . . مجنون بحبك يا بنت الهرمة» .

ضربته على ظهره بكفها المرحة وهى تكاد تنفجر من الضحك .

●●●

كانت الليلة ليلة أربعة عشر فى الشهر العربى، والقمر يتجلى فى السماء الصافية بوجهه الجميل الباسم، والهواء رخى عذب، وأم صابرين جالسة فى الحديقة الصغيرة أمام بيتها يحيط بها سور أخضر تختلط فيه النباتات والورود بالأسلاك الشائكة، وكانت تداعب الأطفال الثلاثة فى سعادة ما بعدها سعادة، لقد مضى اليوم ناجحًا من الناحية التجارية والناحية النفسية أيضًا، ولم تعد تعانى من ارتفاع ضغط الدم أو الصداع، إنها فى انتظار عودة عبد المتجلى من اجتماع مسائى يعقده مجلس القرية، وكانت قلقة بعض الشىء لتأخره، كانت تريده أن يأتي بسرعة، هذه اللهفة لم تحدث على هذا النحو منذ فترة طويلة . . سوف تجلس معه عندما يعود على الحشائش الخضراء، ويتمرغان معًا على ملمسها الرطب ذى الرائحة المميزة، ويفرغان من هموم الدنيا ومشاغلها، ويظلان ينعمان حتى الفجر . . كانت غارقة في أحلامها الوردية، وفجأة سمعت صوتًا

مدويًا مخيفًا، جذب انتباهها، لكنها شعرت أن شيئًا ما ارتطم بجدار بطنها، نظرت فوجدت سائلاً أسود يتدفق من جرح غائر . . صرخت بأعلى صوتها طالبة النجدة، وأسرع إليها كل من بالبيت، الخدم والحارس وبعض الموظفين الذين يعملون لديها، حتى العجوز رمانة، أتت تتوكأ على عصاها، كما قدمت بدرية - أخت عبد المتجلى - وزوجها أشرف، وأضيئت الأنوار، وأصيب الجميع بالذهول.

لقد أطلق الرصاص على أم صابرين وهى جالسة فى حديقة بيتها الصغيرة . .

وتعالى الصراخ والعويل وطلب النجدة والإسعاف.

قالت أم صابرين وهى ترتمى على ظهرها منهكة:

- «لقد أصابونى فى مقتل . . الكلاب».

انتشر الخبر فى القرية انتشار النار فى الهشيم، وجرى الصغار والكبار واختلط صراخ النسوة بصيحات الرجال، وحضر طبيب القرية يشق الصفوف لمحاولة إنقاذ الجريحة أو إسعافها إلى أن تأتى سيارة إسعاف المركز، وثار الناس لهذه الجريمة الشنعاء وسخطوا أشد السخط، كانت أم صابرين راقدة على ظهرها ووجهها شاحب مبتسم والدموع فى عينيها، وأنفاسها تتسارع، ومن آن لآخر ينبعث صوت العجوز رمانة نائحًا بكلمة واحدة:

- «بنتى».

وأفاق الناس مذهولين على صوت صفارات الخفراء، وقد أمسكوا برجل ملثم لا يظهر منه إلا عيناه، ومعه «بندقية» طويلة بما سورتين، وصاح عتيق شيخ الخفراء وسط الحشد قائلاً:

- «سمع.. هس.. لقد فعلها المجرم «الوردانى ربيع» وأخرست الدهشة الألسن، وأخذ الناس يتبادلون النظرات الحائرة وهو يضربون كفًا بكف، وفجأة انقضوا على الرجل الملثم، وأزالوا عنه غطاء الرأس والوجه، ومزقوا المعطف والجلباب الذى عليه حتى أصبح شبه عار، وأخذوا ينشبون أظافرهم وأسنانهم فى لحمه، وهو كالذبيحة الخائرة لا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم أوقعوه أرضًا وكادوا يفتكرون به، لولا مجىء العمدة إبراهيم صوان على عجل، فصاح فى الناس أن يبتدعوا حتى لا يموت الجانى، وتضيع معالم الجريمة النكراء، وأمر الخفراء بضرب الناس بالعصى والكرابيج حتى يستطيع أن يمسك بالوردانى ربيع ويسوقه إلى «الدوار» انتظارًا للشرطة والنيابة، وتم للعمدة ما أراد بصعوبة بالغة:

قال العمدة وهو يرمق الوردانى بنظرات نارية:

- «كيف فعلتها أيها الخائن؟».

طأطأ رأسه دون أن يجيب، واستطرد العمدة:

- «ألم تكن متورطًا فى جريمة حرق فسامحتك؟».

- «بلى».

- ألم تكن مجرمًا مأجورًا، فجادت عليك بعمل شريف!».

- «ألم تكن تعيش على فتات الموائد، فأغدقت عليك الأجر الكبير، والمكافآت السخية؟».

- «بلى».

- «ألم تعطك ثقتها؟».

- «بلى».

- «أيه الغادر الملعون، كيف فعلت فعلتك السوداء؟».

- «قالوا لى إذا لم تقتلها فسنقتلك، وأنا أعرف أنهم قادرون على ذلك، ولم أشأ أن أموت.. ثم أعطونى الكثير والكثير جدًا..».

- «هل ستعترف بأسمائهم؟».

- «أموت ولا أفعل، إن زوجتى وأولادى كالرهائن عندهم، ثم إنكم لن تصلوا إلى الوسطاء.. أما الرؤوس الكبيرة المدبرة فلن يصل إليهم أحد.. وحتى الوسطاء فسينكرون كل شىء، ويفلتون من العقاب..».

قال العمدة وهو يكز على أسنانه من الغيظ:

- «سنرى».

قبل أن تصل الشرطة والنيابة إلى «كفر أبو سالم» قدم محام كبير من القاهرة ومعه معاونوه لحضور التحقيق مع الورادنى ربيع، وأصر المحامى الكبير فى البداية أن يسجل حالة الوردانى الصحية والبدنية، فى محاولة لأخذ الضمانات الكافية لعدم تعرضه لأى إكراه بدني أو تعذيب، كما سجل أيضًا اعتداء الجمهور فى القرية عليه، وقيامهم بإيذائه، مع أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، وفى أثناء التحقيق أنكر الورادنى صلته بالحادث، وأكد بعشرات الأدلة إخلاصه التام لأم صابرين ونفى تمامًا صلته بحرق البيت، كما أنكر ملكيته للسلاح المستعمل فى الجريمة، وقال إن شيخ الخفراء عتيق هو الذى أتى بالبندقية ووضعها فى يديه حتى تعلق بصماته به، كما ذكر أنه كان فى بيت الست صابرين ولما سمع صوت الرصاص هرول إلى الخارج لمطاردة الجانى، وأخذ يجرى وراءه إلى أن أمسكه شيخ الخفراء، وعطله عن أداء مهمته، وأنكر الوردانى جملة، وتفصيلاً ما رواه العمدة عن اعتراف الوردانى بارتكاب الجريمة وبالمحرضين الذين دفعوه لقتل أم صابرين.

***

بينما جاء «عبد المتجلى» وسمع ما جرى كان فى حالة نفسية غريبة، رآها ترقد جريحة، صرخ والدموع تنسكب من عينيه:

- «حياتى . . » .

- «لا تجزع يا حبيبى . . إنها إرادة الله» .

- «فعلها الأشرار؟» .

قالت وفمها يرتعش، والكلمات تخرج بصعوبة :

- «لم يطل حلمنا الجميل . . لكن أيامنا الجميلة تضاهى عمراً . . » .

هتف ويكاد الجنون يعصف به :

- «أم صابرين . . لن تموتى . . » .

- «ليس بأيدينا يا حبيبى» .

- «ليس من أجلى . . من أجل صابرين ومنصور ومندور يجب أن تعيشى» .

تنهدت وهى تتألم :

- «ليتنى سمعت كلامك . . وعشنا فى أرض بعيدة . . لا يعرفنا فيها أحد . . مثل ذلك المجنون . . مجنون ليلى الذى كنت تحدثنى عنه . . مع البهائم . . فى الصحراء . . لكن حلاوة الدنيا أنستنى مرارتها . . كنت أحاول أن أنسى الأرض النجسة التى ندب عليها . . الكلاب والذئاب . . والثعالب . . والفريسة . . آه . . النار

فى قلبى وفى أحشائى . . انجدنى يا عبد المتجلى . . إنى أتعذب . . أولادى . . ».

ارتمى عبد المتجلى عليها شاهقًا باكيًا بصوت يمزق نياط القلوب، حتى بكى جميع من حوله، كانت أم صابرين تبتسم وكان عبد المتجلى ينوح، والعجوز رمانة لا تردد سوى كلمتها الوحيدة الحزينة التى تخرج ممخضة بالأسى والبكاء :

- «بنتى».

وقدمت عربة الإسعاف، وحملت المصابة فى عجل، وركب معها عبد المتجلى وطبيب القرية وبدرية أخت عبد المتجلى، لكن روح أم صابرين صعدت إلى بارئها قبل أن تصل السيارة إلى المستشفى المركزى.

●●●

فى التحقيق سألوا عبد المتجلى :

- «لمن توجه الاتهام يا عبد المتجلى بالنسبة لقتل زوجك».

قال وعيناه تتأرجحان فى انفعال جنونى :

- «قتلها النظام».

- «ماذا تقصد بالنظام».

- «الطوارئ».

- «وما دخل الطوارئ هنا؟».

كفكف عبد المتجلى دموعه وقال:

- «حينما سرقوا الونش.. ذهبت لأبحث عنه بقيت شهوراً أبحث.. أوشكت أن أضع يدى على اللصوص.. لكنهم أخذونى إلى المباحث وضربونى كما تضرب الحمير والبهائم.. يومها قلت لهم أنا تبت.. ولن أبحث عنه بعد اليوم.. أوضحت لهم يومها أن ما يفعلونه ظلم وانتهاك للقانون، فأفهمونى أن قانون الطوارئ جاء لحماية الأمن..

وما دخل الأمن فى الونش المسروق؟؟

- «بالعكس.. لو عثرنا على الونش لاستقر الأمن..».

ضربونى.. ثم ضربونى.. قلت لهم تبت.

وقام عبد المتجلى من فوق الكرسى الذى يجلس عليه، وأخذ يرقص وهو يضحك فى بلاهة:

أنا نفسى أتوب

أنا نفسى أتوب

وأغسل فؤادى

من الذنوب . . من الذنوب . . من الذنوب . .

كان يطوح رأسه يمنة ويسرة، وهو مغمض العينين، ويتواثب ويتقافز، والدموع تلمع على وجنيته، ويغنى بصوت جريح . .

أنا نفسى أتوب

أنا نفسى أتوب

ثم توقف فجأة، وفتح عينيه المحمرتين الحائرتين وقال :

- «حين تموت امرأة مثل أم صابرين . . فإن الحب يموت . . والخير يموت . . والعدالة تنفى من الأرض . . إنهم الآن يشربون نخبها، ويغنون ويرقصون . . وأرى دمها الطاهر فى كؤوسهم . . الشيطان يرقص هناك . . اعلموا أيها السادة أن دمها سوف يشعل الثورة التى لن تبقى ولن تذر . . بصراحة أنا منذ اليوم رجل متطرف . . لن أترك النظام الصنم يأخذ بحقى لأنه لن يفعل . . ولن يشفى غليلى . . أريد أن أقيم شرع الله . . وإذا لم تقيموه أنتم فسأقيمه أنا . . فإما أن أنجح أو أموت شهيداً دونه . . » .

مال المحمق على حضرة العمدة إبراهيم صوان وسأله :

- «ماذا جرى له؟؟» .

- «المصيبة أفقدته عقله يا بك . . وليست هذه أول مرة يحدث له فيها ذلك . . إن له تاريخًا . . » .

- «ماذا تقصد يا عمدة؟؟».

- «ألم تسمع حكاية الونش».

- «بلى».

- «ماذا تقول عن شاب ريفي ساذج خرج يبحث فى طول القاهرة وعرضها عن الونش المسروق الذى فشلت الحكومة فى العثور عليه؟».

- «أقول عنده لوثة..».

قال العمدة:

- «بالضبط.. ولهذا أرجو إحالته إلى أخصائى أمراض عقلية حماية له ولأسرته..».

رفعت الجلسة.. والتحقيق مستمر..

شرشابة- غربية- مصر

فى ١٩٩٠/٧/٢٥

●●●